روايات عبير

آن هامبسون

تحسبين الدقائق



١٦٢

١ - وحدي مع النسر

كانت ترقص فرحاً وبهجة وثوبها الطويل يتموج حول جسمها الناعم الرشيق عندما تقدم منها جويل قائلاً:

ـ دعيني اراك.

وبينا جويل يقترب منها، دارت لتجد نفسها امام ابواب ضخمة من خشب السنديان تؤدي الى قاعة دافئة تنبعث منها اصداء الموسيقى، فاتجها نحو زاوية وجلسا بعيدين عن مرأى الضيوف العديدين الذين يحضرون حفلة زفاف.

ـ قولي احبك.

وبصوت عذب رقيق رقة نسيم الصيف في الصباح اجابت روكسان:

ـ احبك يا جويل.

كان في عبارتها تلك شيء من الخضوع نتيجة التشدد في الطريقة التي تشنت عليها واضافت:

ـ احبك جداً جداً.

وغرقا في عناق طويل افاقت بعده محدقة في عينيه الزرقاوين بينما عيناها تشعان كالنجوم وشفتاها ترتجفان وقلبها يرقص طرباً. الحياة رائعة... كيف لا وقد وجدت مثلها الأعلى في الرجل الوحيد الذي احبته وستظل تحبه. طويل انيق وجذاب، بامكانه ان يحصل على اية فتاة يشاء، الا انه اختارها هي.

ـ لا استطيع الانتظار يا حبيبي.

وبخجل طفلة خائفة، انصرفت عنه وهي تردد:

- ارجوك. . . لا تقل هذا يا جويل.

استدار نحوها ليقول:

- افكارك لا تتمشى مع العصر الذي نعيش فيه. لماذا يا حبيبتي؟ ستتزوج بعدما اكون وفرت بعض المال. لماذا تنفرين من القليل من الحب؟

عبست لدى سماعها تلك العبارة واجابت:

- اريد ان اعود يا جويل.

لم يكن منه الا ان دفعها نحوه قائلاً:

- انها تلك العجوز السخيفة. . . نعم هي يا حبيبتي. لا تنكري ذلك ارجوك. . . تلك العجوز العانس التي لا تثق باي رجل.

لم تعلق روكسان بشيء. غير ان صورة تلك المرأة امتثلت امامها. عينان رماديتان تنزان ماء، ظهر محني ووجه تكسوه علامات التقدم بالسن ويدان تشكوان آلام الروماتيزم المزمن. كانت ديبورا شخصاً محبباً ومحترماً من العائلة. جيء بها بعد ان توفيت والدتها مباشرة، فرعت ديبورا الطفلة وربتها بالطريقة التي اعتقدتها الأفضل.

كانت ديبورا تقول لها دائماً:

- الرجل الذي سيحبك سوف يضعك على قاعدة تمثال. وعليك يا روكسان ان لا تفعلي اي شيء ينزلك من ذلك المكان. فمهما يكن حب الرجل ثابتاً، فذاكرته تبقى ثابتة بالقدر نفسه. سوف يبقى يدللك ما دمت جالسة في المكان الذي وضعك فيه. وان سقطت فانه لن ينسى ذلك ابداً.

ضحك جويل من هذا الكلام مذكراً روكسان بأن عمرها تسعة عشر عاماً وبأنها سيدة نفسها وعليها ان لا تصغي لا الى مربيتها العجوز ولا حتى الى والدها. الا انه ليس بامكان المرء ان ينسى بسهولة علاقة تعود لسنوات عديدة خلت. ان احترامها لوالدها وخشيتها منه هما الآن بالقوة نفسها مثلما كانا عند طفولتها، ولذلك لا تستطيع ان تفعل شيئاً لا توافق عليه ديبورا، الأمر الذي يجعلها تعارض محاولات جويل في اقناعها.

ورددت:

- اريد العودة.

عندها امسكها جويل بذراعيها واتجها معاً نحو القاعة الكبيرة في الفندق حيث كانت تؤدي فرقة موسيقية معزوفة فالس، والضيوف يقهقهون

ويتحدثون وهم يرقصون.

كان الوقت بعد منتصف الليل، وبينما وقفت روكسان امام المرآة تغير ثيابها، اذا بالباب يفتح وتدخل المرأة العجوز. ابتسمت روكسان وقالت:

- اني سعيدة جدا يا ديبورا.

فأجابت:

- جئت فقط لأقول لك تصبحين على خير. لقد سمعتك تدخلين.

ومشت ديبورا بهدوء لتقف في منتصف الغرفة وتتأمل، بعينين رماديتين شاحبتين، وجه روكسان المتوهج.

- ما زلت مستيقظة؟ كان يجب عليك يا عزيزتي ان تطفئي الضوء وتنامي.

فأجابت ديبورا:

- اود ان اتأكد من عودتك يا حبيبتي.

قالت روكسان:

- عليك الا تقلقي عندما اكون برفقة جويل، فأنا اشعر بأمان معه. (وبعد فترة من الصمت اردفت) هل سمعتني اقول انني سعيدة؟

اجابت ديبورا على الفور:

- طبعاً، وهل ادع ذلك يفوتني؟ حتى لو لم تقوليه فانني اراه. لقد مضى على ذلك اسابيع. متى ستتزوجين؟

- ليس لدينا المال الكافي. . . او على الأقل هذا ما يقوله جويل. وهل اتزوج وليس لدي شيء؟

- جويل رجل حكيم. ووالدك يوافق ان عليه ان يوفر بعض المال اولاً.

حولت العجوز نظرها نحو الحائط. تطلعت اليها روكسان عابسة تسأل:

- بماذا تفكرين يا ديبورا؟

ارادت روكسان ان تعرف حقيقة شعورها ونظرت نحو العجوز ثم هزت رأسها اذ تذكرت ان ديبورا لم تحب جويل في بادىء الأمر.

وابتسمت ديبورا قائلة:

- ليس مهماً يا طفلتي.

حدقت روكسان تتأمل ديبورا برفق. وجه زادته السنون قبحاً، وبشرة

مرتخية وخدان تظهر فيهما الشرايين الحمراء مثلما تظهر الطرق على الخرائط، وشعر ابيض مجدول من الخلف. تقدمت منها ديبورا وشفتين باردتين خاليتين من أي لون قبلتها قائلة:

- تصبحين على خير يا عزيزتي، واحلاماً سعيدة.

احلام سعيدة... امنية مألوفة، تسمعها روكسان منذ وعت الحياة.

اغلق الباب بهدوء خلف المرأة العجوز. نظرت روكسان في المرآة مرة اخرى وراحت تتأمل نفسها. جسم نحيل متواز بشكل تام، وجه جميل، خدان لم تبخل عليهما الطبيعة، عنق طويل منحن قليلاً وجبهة خالية من الخطوط. كتلة من الشعر عسلية اللون فوقها ظلال جميلة نحاسية تتدلى على كتفين بيضاوين ناعمتين. عينان بنفسجيتان نقيتان تشعان كالنجوم بسعادتها الداخلية. الحياة جميلة. قالتها لنفسها مرة اخرى.

وبعد اسبوع، وبينما هي تتحدث الى جويل، فاجأها بالقول:

- انا ذاهب الى لندن من قبل الشركة التي اعمل فيها يوم الاربعاء، ولن اعود قبل الاثنين.

فهتفت:

- اوه...

وبرهة شعرت بأن غيابه سيطول لسنة واكثر.

- سوف اموت.

ابتسم جويل، وبرفق وضع يده على خدها وقال:

- آمل يا حبيبتي، ان لا تفعلي ذلك.

- لن تحضر حفلة كلير اذن.

- كلا يا عزيزتي. لكن عليك انت الذهاب.

اجابت على الفور:

- لن اذهب الى اي مكان بدونك.

فقال باصرار:

- ليس هناك من سبب يدعوك لعدم الذهاب. لا يجب ان تخذلي كلير فهي صديقتك قبل ان تكون صديقتي.

صحيح. فكلاهما درس في المدرسة ذاتها وهي التي عرفت جويل اليها.

- نعم، اعتقد انه يجب علي ذلك.

عندما كانت ترتدي ثيابها للذهاب الى حفلة عيد ميلاد كلير مساء يوم السبت، لم يكن لدى روكسان اي اهتمام بما تفعل. ان تلبس من اجل جويل فهي مسألة مختلفة تماماً. وبعدما انتهت من ارتداء ملابسها ووقفت امام والدها وديبورا اللذين ابديا اعجاباً كبيراً بها احست بشيء من الراحة.

- جاهزة يا عزيزتي؟

قالها والدها الذي كان بانتظارها ليأخذها بسيارته، ثم اضاف:

- تبدين جميلة جداً.

احمرت وجنتاها قليلاً ثم شكرته على ملاحظته. كانت تشعر دائماً بالارتباك كونه رجلاً عسكرياً، طويل القامة، مستقيماً صارماً. فبينه وبين ديبورا، وافكارهما المتشددة في التربية، تكونت لدى روكسان ميزة الطاعة الغريزية. ففي حالات كثيرة كانت تثور على ذلك بهدوء آملة ان تصبح من تلقاء نفسها ميالة الى التوكيد والحزم. وكانت تفكر، بانها عندما تتزوج سوف تنمو حريتها الشخصية اذ ان جويل لن يكون ابداً مستبداً لهذه الدرجة فيحاول اخضاعها وقهرها.

وعندما اقتربت السيارة من فندق فورتونا الرائع قال الوالد:

- سأعود في حوالي الساعة الحادية عشرة. تكونين جاهزة في هذا الوقت؟

ادركت روكسان ان الطريقة التي قال بها ذلك كانت اقرب الى الأمر منها الى الطلب. فوالدها يحب دائماً ان يأوي الى فراشه قبل منتصف الليل، وعودته لاصطحاب روكسان مسألة تعتبر في الواقع تنازلاً منه، وهي تقدر له ذلك. وعند دخولها القاعة تقدمت كلير منها مرحبة:

- اهلاً روكسان. انا متأسفة لعدم تمكن جويل من الحضور.

اجابتها:

- انا ايضاً تأسفت جداً لذلك.

وخفت صوتها وقد تسلط نظرها على عينين داكنتين كانتا تحدقان فيها من طرف القاعة البعيد. لم تستطع ان تحول بصرها عنهما، وشعرت للوهلة الاولى بانها وقعت ضحية تينك العينين المتفرستين.

- من... من يكون هـ... هذا؟

قالتها بفم جاف وصوت مرتجف خائف. اخبرتها كلير من يكون، الا

ان روكسان لم تنتبه. لأن كل همها كان مركزاً على ذلك الرجل الذي لم يحول عينيه السوداوين عن وجهها الصامت وحركات جسمها النحيل. ارتجفت، وبصورة عفوية وضعت يديها حول كتفيها المكشوفتين. شعرت بانها ترتجف بالفعل، وبان اعصابها توترت. برغم ذلك استطاعت ان تسجل في ذاكرتها بعضاً من ملامحه الظاهرة... قامة طويلة وجسم رشيق وبشرة برونزية وشعر قصير لامع ووجهه مليء بالتجاعيد وشفاه رقيقة في وجه يوحي بالقساوة والغطرسة. انه الشر بعينه. هكذا فكرت بعد ان غمرتها رعشة اخرى. لماذا يحدق فيها هكذا؟ ولماذا لم تستطع ان تحول نظرها عنه؟ ومن تراه يكون؟ اخذت كلير صديقتها جانباً وهي تنظر اليها بغرابة لتقول:

- انه دون خوان ارمانلدو راميريز. يبدو انك فتنت به؟

حولت روكسان نظرتها المحدقة لتسأل:

- انه... انه غير اعتيادي. أهو اسباني ام برتغالي؟

اجابت كلير:

- كلا. هو من المكسيك.

- وكيف تعرفت اليه؟

وضعت كلير ذراعيها حول روكسان واتجهتا نحو شلة من الأصحاب ثم تابعت روكسان:

- لم تذكريه ابداً من قبل.

اجابت كلير:

- انني لا اعرفه. فهو صديق لمارتن الذي تعرف اليه خلال رحلاته في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي.

- صديق لأخيك؟ وهل يمضي فرصته هنا؟

شعرت روكسان عندما سألت ذلك، بقليل من الاحراج اذ ان مارتن كان يود كثيراً ان تكون صديقته، وعندما رفضت، تركها واخذ يسافر من مكان لآخر. تذكرت الآن انه كان قد كتب لأخته كلير يعلمها بانه متجه الى المكسيك عن طريق الولايات المتحدة.

واجابت كلير:

- اعتقد ذلك. مساء امس فقط علمت بانه قادم الى الحفلة. وكما

تعلمين مارتن يسكن في شقته الخاصة الآن. اتصل بي هاتفياً ليخبرني بانه قادم بصحبة احد الاصدقاء هذه الليلة.

ثم هزت كلير كتفيها استهجاناً وتابعت:

- تعرفين مارتن فهو غريب الأطوار في كل ما يعمل. اي اخ آخر عداه يذكر على الأقل اسم الصديق الذي سيصطحبه معه. لقد ارتعدت عندما رأيت خوان هذا... انه يذكرني بكل ما هو شرير.

حدقت روكسان في عيني الرجل. انه غير حقيقي. عضلات وجهه جامدة وعيناه الداكنتان تحدقان فيها من الجهة المقابلة. استطاعت اخيراً ان تحول نظرها عنه لتقول:

- قلت نفس الشيء عندما رأيته. انه صنف غريب من الرجال.

وبصوت خافت قالت كلير:

- قبل لحظات حصلت على بعض المعلومات عنه من مارتن سأخبرك اياها فيما بعد، عندما تنفرد ببعضنا.

وتطلعت نحو الضيوف مبتسمة:

- اهلاً بكم جميعاً، انا ممتنة لحضوركم.

ومن الطرف الآخر قالت احدى الحاضرات وتدعى غليندا هارتنيت:

- شكراً لدعوتك هذه.

ثم صمتت وسألت:

- بحق السماء، من يكون المخلوق الواقف هناك؟

اجابها احد الحاضرين:

- صديق لمارتن من المكسيك.

- انه لا يجيد الاختلاط بالناس. لماذا لا يأخذه مارتن ويعرفه الى الحضور؟

اجابت كلير:

- اعتقد انه سيفعل. مارتن يتكلم على الهاتف الآن وسيعود بعد لحظة.

وقفت روكسان صامتة بينما الآخرون يتناولون اطراف الحديث وهم في طريقهم نحو القاعة. كانت ما تزال متوترة الاعصاب وازداد ذلك التوتر، وازدادت معه ضربات قلبها عندما لمحت مارتن يتقدم نحوها مع ذلك الرجل الغريب. تولت كلير تقديمها لبعضهم البعض ثم غادرت المكان.

شعرت باحكام قبضته على يدها، وببسمة رقيقة. قالت بتهذيب:

- تشرفت بمعرفتك.

فأجابها بصوت هادىء، عميق النبرات:

- انا مسرور بمعرفتك يا آنسة هاتون.

بقيت يد روكسان في يد ذلك الرجل مدة فشعرت ان صديقاتها يراقبن ذلك وهن على وشك الانفجار بالضحك. احمرت وجنتاها وهي تحاول سبر غور نظراته عندما قال:

- يجب ان نتكلم سوية فيما بعد.

كانت على وشك ان تسأله السبب لو لم يقاطعها مارتن ليقدمه الى شخص آخر.

وبعد قليل وجدت نفسها واقفة بالقرب من كلير حيث الجميع يتناولون المأكولات الباردة فقالت:

- اخبريني كل شيء عن ذلك الرجل.

اجابت كلير:

- دون خوان؟ ما لدي هو بعض المعلومات الممتعة التي حصلت عليها من هنا وهناك. يقال بأن اصله يرجع الى احدى الجماعات التي كانت تغزو وتنهب وتقتل. خوان لم يخبر اخي بهذه المعلومات غير ان مارتن حصل عليها من احد الاشخاص عندما كان يزور خوان. فأشخاص مثل خوان يظهرون من وقت لآخر بين عائلات يتسم افرادها بالوسامة. الا ان هذا ليس كل شيء. . . كان لخوان خطيبة رائعة الجمال توفيت فيما بعد، فآلمه ذلك اشد الآلام وانغلق على نفسه ومزرعته حتى انه لم يسمح لأحد سوى الخدم، وما اكثرهم عنده، بالدخول والخروج. هذا ما قاله مارتن.

وبعد تفكير قالت روكسان:

- انها قصة حزينة. الا انني لا استطيع ان اتصور اي فتاة توافق على الزواج منه في الدرجة الأولى. . . انه مخيف.

هزت كلير رأسها قليلاً ثم قالت:

- اوافقك على ذلك. غير ان مرارته هي التي تسيء اليه من ناحية اخرى، هنالك امور تبدو جذابة في شخصيته وهي صرامته وشفتاه الرقيقتان.

اومأت روكسان برأسها علامة الموافقة ثم سألت:

- اذا لم يسمح لأحد بدخول مزرعته فكيف استطاع مارتن الاجتماع به؟

اجابت كلير:

- انها قصة غريبة. كان مارتن يمر امام المزرعة في يوم من الأيام عطشاً، وعندما وجد بوابة القصر مفتوحة دخلها فلمحه خوان الذي كان يتمشى في الحديقة في تلك الساعة. ثار عليه في بادىء الأمر، الا انك تعلمين كم مارتن لبق وفاتن. والنتيجة، انه بعدما انتهى من شرب الماء طلب منه خوان ان يمضي بعد ظهر ذلك اليوم معه ليستحم ويرتاح قليلاً. ثم الح عليه في البقاء وتناول العشاء. بقي مارتن بضيافة خوان ثلاثة ايام، وبقيا بعد ذلك على اتصال مستمر واتفقا على ان يقوم خوان بزيارة مارتن في انكلترا حالما يعود الأخير اليها. وانت تعلمين ان مارتن عاد منذ اسبوعين فقط. اذن خوان لم يضيع وقتاً طويلاً في الانتظار.

قالت روكسان بعبوس:

- الأمر يظهر غريباً بالنسبة الي. كيف ان خوان المتنسك لهذه الدرجة، لم يتردد في المجيء الى هنا؟

- هذا الأمر حيرني انا ايضاً.

ثم اضافت كلير:

- ان مارتن فرح جداً بمجيء خوان. قال انه من الصعب التصور كيف ان رجلاً كهذا ينقطع عن العالم الخارجي من اجل حب ضائع.

قالت روكسان:

- لا استطيع تصور ذلك ايضاً.

اجابت كلير:

- بالعكس. . . فان رجالاً من هذا الصنف يحبون بعمق ومرة واحدة في حياتهم.

ابتسمت روكسان، وسألت بصوت جدي عن الوقت الذي مضى على وفاة خطيبته. اجابت كلير:

- عشرة اعوام.

- وهل امضى كل هذه السنوات يعيش حياة نكدة؟ انا لا اصدق.

اكدت لها كلير:

- هذه هي الحقيقة. كان عمر خوان ثلاثة وعشرين عاماً عندما حدث ذلك. توفيت خطيبته خلال اسبوع في المستشفى بعد تعرضها لجرثومة مميتة. فاصبح خوان على اثرها في وضع لم تنفع معه اية مواساة مما جعل البعض يعتقد انه سينتحر.

هزت روكسان رأسها وقالت:

- انه اقوى من ان يفعل ذلك.

قالت كلير:

- اوافقك على ذلك. الا ان الرجل الذي اخبر مارتن بالقصة عندما كان في مزرعته، قال ان جميع الناس هناك توقعوا موت خوان.

ثم علقت روكسان قائلة:

- لقد كان هذا الرجل كريماً بمعلوماته تجاه هذا الغريب.

اجابتها كلير:

- الجميع علموا بأمر ذلك الانكليزي الذي دخل المزرعة ونزل بطريقة لا تصدق ضيفاً على صاحبها. تناقل الخدم ذلك الخبر على ما اعتقد، الأمر الذي جعل ذلك القروي يسخو في تزويد مارتن بتلك المعلومات، ربما بهدف اخراج مارتن من المزرعة. الا ان هذه الخطة لم تنجح لأن مارتن كان يعلم ان خوان سوف يغضب ويمتعض اذا علم ان ضيفه يحاول كشف اسراره الشخصية بعد استضافته له.

وحارت روكسان بتفكيرها. هدأت اعصابها قليلاً ثم توقفت عن التلفت حولها كيلا يقع نظرها مرة اخرى على خوان فتتأثر به كالسابق. ثم تمتمت:

- في الواقع انها قصة غريبة ومحزنة. فالمرء لا يسمع كثيراً عن هكذا اشياء.

- ان شعار هذه الجماعة التي ينتمي اليها خوان هو النسر الأسود... وعندما يولد طفل جديد يكنونه حالاً بالنسر الأسود.

لدى سماعها ذلك، اهتزت روكسان بعنف. لو ان صديقتها بقيت صامتة ولم تفه بذلك! عادت تسأل:

- هل الرجل نفسه هو الذي اخبر مارتن بهذا؟

- طبعاً. مارتن لم يتحدث الى احد سواه.

حدقت روكسان في تينك العينين السوداوين الحادتين، ففارت اعصابها مرة اخرى. تقدم خوان طالباً منها الرقص معه، وقبل ان تفوه بكلمة الرفض وجدت نفسها بين ذراعيه على الحلبة. وبعد قليل قال:

- ترقصين بخفة يا آنسة هاتون. فهل تفعلين ذلك كثيراً؟

اجابت على الفور:

- ليس كثيراً. اذهب الى الحفلات. وفي بعض الأحيان يأخذني صديقي الى نوادي الرقص.

مضت لحظة وجوم غريبة تابع خوان بعدها:

- صديقك؟ اخبريني عنه.

تطلعت روكسان اليه ثم عبست قليلاً. يظهر ان الرجل معجب بتعابيرها. قالت:

- متأكدة انك لا تريدني ان احدثك عنه.

اجاب بسرعة:

- على العكس. انه شيء ممتع. هل انت مخطوبة؟

هزت روكسان رأسها واجابت:

- ليس الآن. لكننا ننوي الزواج فيما بعد.

تقوست شفتاه قليلاً. وبابتسامة اعتقدتها روكسان نتيجة فكرة خاصة خطرت على باله قال:

- متى تنويان الزواج؟

اجابته:

- بعدما يكون جويل قد وفر المال الكافي لذلك.

سأل خوان:

- وهل المال مهم لهذه الدرجة؟

فأجابته بسذاجة:

- ليس بالنسبة الي. اتزوج الآن اذا وافق جويل.

حدق خوان في وجهها المتوهج وقال:

- لا بد ان تكونا متحابين جداً.

- طبعاً، والا لن اكون مستعدة للزواج من جويل.

وبعد لحظة صمت طويلة، شعرت روكسان انه يومىء برأسه وقد شرد

ذهنه ولمحة من الاكتئاب بدت عليه. وتساءلت عما اذا كان يفكر بخطيبته.
وعاد يسأل:

- منذ متى تعرفين جويل؟

غريب ان يكون مهتماً بهذا الأمر الى هذه الدرجة. شعرت روكسان بالتردد في الاجابة على جميع اسئلته التي يهدف من ورائها التعرف اليها. كانت تنقصها قدرة الرفض، لذلك قررت الاجابة عليها كلها فقالت:

- ثلاثة اشهر فقط.

ردد عبارتها وكأنه يتحدث الى نفسه:

- ثلاثة اشهر... ليست مدة طويلة ابداً.

تمنت روكسان اذذاك لو تتمكن من استعادة هدوئها فكلماته تلك جعلتها ترتعد وتشعر بخوف داخلي تعذر عليها فهمه. وبصعوبة قالت:

- هل تسمح ان نتوقف عن الرقص... فانا اشعر ببعض التعب.

لمعت عيناه الداكنتان ثم ما لبث ان خبا بريقهما والفم النحيف ضاق قليلاً. أما روكسان فسرت لموافقة خوان على طلبها بمغادرة الحلبة، غير انها ستكون مخطئة ان اعتقدت بانها تستطيع الت[illegible]ص منه.

- يجب ان نتكلم.

وقادها الى زاوية ليجلسها الى طاولة تتسع لشخصين واردف قائلاً:

- انت جميلة جداً. كم عمرك؟

لم يكن لدى روكسان القدرة على السكوت فاجابت:

- تسعة عشر عاماً.

تنهد بعمق وقال:

- انه اجمل سن للمرأة.

فادركت غريزياً ان عمر خطيبته كان تسعة عشر عاماً حينما توفيت.
وعاد يقول:

- عيناك لونهما غير اعتيادي، بين البنفسجي والأزرق. لونهما يتغير...
هل لاحظت ذلك؟

فأجابت بخجل انها تعرف ذلك ثم اضافت:

- جويل يحبهما.

لم تدر لماذا قالت ذلك، ربما ذكر اسم جويل يمنحها الحماية... ولكن

ضد من؟

ومن غير ان يعلق على ذلك استمر خوان بالتغزل فيها قائلاً:

- وشعرك ايضاً غير اعتيادي... هذه المسحة النحاسية...

شعرت روكسان ان خوان لم يكن معها، بل كان يفكر في الماضي البعيد. وتساءلت عما اذا كانت الألوان التي تحدث عنها هي الوان شعر وعيني خطيبته، وفجأة صار هناك سبب لاهتمامه.

- شكلك... وجهك...

اصبحت روكسان باردة كالثلج، وبغير اتزان، وقفت لتقول:

- اود العودة الى الآخرين... ارجوك، خذني الى هناك.

تطلع نحوها بتعجب سائلاً:

- ما بالك... هل انت مريضة بالفعل؟

وخامر خوان شعور بانها تكذب عليه اذ انها اخبرته قبل قليل بأنها تعبة.

- اني تعبة... تعبة فقط.

اجاب على الفور:

- تعبة من رفقتي؟

وبذهول اجابت:

- لا. طبعاً لا. انني احب العودة الى الآخرين.

- حسناً يا آنسة هاتون. ربما نرقص معاً في وقت لاحق.

- انا، انا...

كانت تود كثيراً ان تقول لا، لكن كيف لها ان تفعل ذلك؟ ليت جويل كان حاضراً. ليتها رفضت المجيء الى هنا من دونه. الا ان جويل لم يكن هناك وهي وحيدة مع هذا الغريب. هذا المتنسك الذي بمجرد تعرفه الى مارتن تخلى عن تنسكه وجاء الى انكلترا حيث التقى روكسان التي تشعر في هذه اللحظات بأن سيفاً مسلط فوق رأسها.

وبكلمات ناعمة، تبدو فيها عاطفة غير واضحة قال:

- مم تخافين يا آنسة هاتون؟

هزت رأسها علامة الحيرة وقالت:

- لا اعرف.

القى نظرة عميقة على عينيها ثم قال:

- انت خائفة اذن.

بعفوية اومأت برأسها علامة الموافقة. فعاد يسأل:

- لماذا يا طفلتي... لماذا؟

طفلتي... كلمة غير عادية تأتي من رجل غريب.

اجابت وهي ترتجف:

- في الواقع لا اعرف لماذا. اعتقد ان اعصابي ليست هادئة هذا المساء.

قال باصرار:

- هل انا سبب عدم هدوء الاعصاب هذا؟

مرة اخرى طريقة غير عادية في الكلام، وجدت روكسان نفسها غير قادرة على الاجابة. الا انها اضطرت اخيراً لمصارحته بالقول:

- لم اقابل شخصاً مثلك في حياتي.

لم تكد تنتهي من عبارتها حتى لمحت موجة من السخرية تملأ عينيه القاسيتين ثم سمعته يقول:

- تجدينني غريباً بالنسبة الى اهل بلدك الذين يتحلون بالوسامة والجمال.

لم تتوقع روكسان ان يكون خوان فظاً الى هذه الدرجة فشعرت بالحيرة ثانية وقالت:

- انت تختلف عنهم... طبعاً.

قالت ذلك، لتفهمه بطريقة غير مباشرة، انه ليس وسيماً مثل اصدقائها الآخرين.

ألقى خوان نظرة حادة، ادركت على اثرها انه ليس منخدعاً بمظهره وشكله. وبعد صمت قصير قال بصوت هادئ:

- اتريدين العودة الى صالة الرقص؟ لن اطلب منك ان ترقصي معي مرة ثانية اذا كان ذلك متعباً بالنسبة اليك.

كان في صوته بريق امل فتحول قلب روكسان الرقيق نحوه، وهي تفكر في الخطيبة التي خسرها خوان، وكيف يكون شعورها فيما لو خسرت هي جويل. ثم اجابت باندفاع:

- لا... لا تقل هذا يا سيد... اعني دون... يا الهي... كيف اناديك؟

ضحكت قليلاً وهي تقول ذلك وشعرت بالراحة عندما توجه اليها ليقول بلطف:

- خوان يكون سعيداً جداً عندما يأتي ذلك منك.

استدارت بخجل وهزت رأسها قائلة:

- اوه... لكن... لكن هذا ليس صحيحاً.

- لا ارى اي سبب يجعله غير صحيح. ناديني خوان.

قال ذلك بصوت ناعم، فكررت بعده:

- خوان.

ثم اردف:

- كنت على وشك ان تقولي شيئاً يا... روكسان.

لفظ اسمها بطريقة جميلة ادهشتها واربكتها في الوقت نفسه واجابت:

- صحيح؟... نعم، نعم، ما احببت قوله هو ان الرقص معك لا يتعبني ابداً.

- ابداً؟

والتقت عيناها بعينيه فقال:

- في هذه الحال سوف ادعوك للرقص فيما بعد.

هزت برأسها علامة الموافقة. ثم وقف الى جانب الطاولة مفسحاً لها القيام عن كرسيها. وبينما هي تحاول الخروج ضربت رجلها بقدم الطاولة. وما ان سمع خوان صرختها حتى وضع يديه حولها وقادها الى الخارج مستفسراً:

- هل تأذيت يا طفلتي العزيزة؟

- انه ألم مؤقت ويزول.

قالت ذلك بصوت عميق مرتجف، شاعرة بلمسات ودفء يديه على كتفيها، وبوجهه الأسمر المنحني عليها وشفتيه القريبتين من شعرها.

٢ - الشرك

تقع مزرعة راميريز على تلة تطل على واد اخضر جميل من جهة، ومرتفعات سيارا مادرا من الجهة الاخرى. تسمرت عينا روكسان في تلك المرتفعات وهي لا ترى شيئاً سوى صورة حبيبها جويل. كانت الصورة تلك معلقة في ذهنها ومسيطرة على مخيلتها منذ اللحظة المشؤومة التي تقرر فيها زواجها من خوان. فخيبة أمله المريرة، واحتجاجه، واخيراً تسليمه بالأمر الواقع سوف تبقى كلها شاخصة امامها حتى الموت. كانت تعرف ذلك من دون شك. وفيما هي مسمرة امام ذلك المشهد جاء صوت زوجها لينبئها بأن العشاء جاهز. استدارت لتجد خوان واقفاً بالقرب منها واضعاً احدى يديه في جيب سترته. سألها:

- لماذا تقفين هنا طوال الوقت؟ ماذا يشغل بالك يا روكسان؟

كانت دائماً مطيعة، وبسبب تلك الطاعة اسرعت بالزواج من خوان. اما الآن فتشعر انها قد بدأت تستعيد قسطاً من ثقتها بنفسها وانه لا بد ان يأتي اليوم الذي ستتمكن فيه من التخلي عن زوجها، الذي بسبب شبهها لحبيبته التي قضت، وضعها في موقف الاختيار بين الخزي لنفسها وبين الزواج منه، فاختارت الأخير، لأن والدها فرض عليها الزواج من خوان، ولأن ديبورا اخبرتها ان عليها ان تتزوج من خوان، ولأنها علمت ان جويل لن يتزوجها اذا عرف ما حدث. هذا ما كان الجميع يؤمنون به، غير انه لم يكن صحيحاً، فخوان اوقعها في الشرك اولاً ثم عرض عليها الزواج...

اجابته بقولها:

- اعتقد ان بامكاني ان امضي وقتي كيفما اشاء.

كلمات فيها من المغامرة الكثيرة، ترددها صبية نشأت على طاعة الكبار، وزوجة افقدت زوجها الصبر اكثر من مرة فأسمعها اشياء لم تحب سماعها. ومضت تقول:

- افضل ان اكون هنا لوحدي.

- وليس مع زوجك؟

استدارت نحوه لتجيب بجرأة:

- نعم افضل ان اكون هنا بدون زوجي.

رمقها بنظرة سريعة وهو يسأل:

- هل تعلمين يا روكسان كم من الوقت مضى على زواجنا؟

ازداد شحوب وجهها وهي تجيب:

- كيف لي ان انسى. شهران وثلاثة ايام و... (ونظرت الى ساعة يدها قبل ان تضيف) واثنتان وعشرون ساعة.

تحول عنها بسرعة فشعرت انه يريد اخفاء تعابير وجهه عنها. قال:

- تحسبين الساعات يا روكسان؟

- سأظل احسبها حتى اموت... واتمنى ان لا يطول ذلك.

لم تقصد ما قالت بقدر ما كانت تقصد ايذاءه، ولكي تجعله مدركاً لغدره وللنتائج المريعة التي تسببت عن ذلك. ارادته ان يتذكر ان جويل هو الذي تحب، وليس ذلك الرجل الأسمر الشبيه بالنسر، الذي يأتي اليها كل ليلة متعجرفاً طالباً ودها.

وبلهجة آمرة قال:

- لا تقولي شيئاً كهذا!

وبسرعة انتقلت روكسان بافكارها نحو مارتا وصورتها التي شاهدتها مع تلك العجوز الشمطاء التي يسمونها مدبرة المنزل. تلك العجوز التي نذرت حياتها لمارتا وكرست وقتها لجمع كل ما خلفته وراءها. وقال زوجها:

- لن تموتي. لن تموتي قبلي... لن ادعك.

وتقدم نحوها فتراجعت الى الوراء، الا انه استطاع الامساك بذراعيها وهزها كما فعل مرات عدة من قبل. وصاح بها:

- لا تقولي ذلك، اتسمعين؟ لا تذكري الموت ابداً مرة اخرى.
كانت روكسان تقف امامه مرتجفة وقد ابيضت شفتاها فارخت ذراعيها وقررت عدم المشاكسة وبأنها ستكون في يوم من الأيام اكثر ثقة بنفسها. ندمت على ما فعلت اذ انه لن يفيدها بشيء سوى توسيع رقعة الخلاف الحاصل بينهما. ثم قالت بصوت مخنوق وعينين دامعتين:

- لنذهب الآن قبل ان يبرد الطعام.

استدار وراح يخطو بسرعة بينما روكسان وراءه تسير ببطء وهي تتأمل البيت وذلك البستان الذي عاد اليه بهاؤه وجماله بعد ان اهمل ست سنوات متواصلة. كان المنزل قصراً مؤلفاً من طابقين، ذا نوافذ واسعة فرنسية الطراز، مزيناً باقواس من زهور البوغنفيلية وفناء حافلاً بالرسوم المغربية وواجهة يعود تاريخ بنائها الى القرن السادس عشر، بينما قناطر السقوف منمقة والأبواب محفورة والمفروشات لا تعكس درجة ثراء صاحبها ابداً.

دخلت اخيراً الى غرفة الطعام آتية من الطابق العلوي حيث كانت تغسل يديها ووجهها وتمشط شعرها. فسألها خوان الذي كان ما يزال واقفاً ينتظرها:

- اين كنت؟ لقد مضى ربع ساعة على دعوتي لك.

اعتذرت وبعد ان سحب لها الكرسي ليجلسها عليه كما كانت عادته دائماً، اجابت:

- لم الاحظ انني اخذت كل هذا الوقت.

التقت عيناها بعينيه وقال بصوت ناعم:

- انتبهي يا روكسان فلصبري حدود. ارجو ان تكوني قد ادركت ذلك الآن.

بدأت بتناول الطعام الذي وضعه الخادم لويس امامها وهي شاحبة. انتهيا من الطعام دون ان ينبس احد منهما بكلمة. ثم نهضت ترافق خوان الى حجرة الجلوس ليحتسيا القهوة. كان الوقت الذي استغرقته تلك الجلسة طويلاً الأمر الذي جعل روكسان تفكر كيف ستتحمل آلافاً من الجلسات المشابهة قبل الهرب من خوان. وبينما هما في غرفة الجلوس اخبرها بانه ذاهب الى المدينة صباح اليوم التالي لقضاء بعض الأعمال هناك. وقال:

- ربما تودين مرافقتي يا روكسان فانت بحاجة للتغيير وبامكانك شراء بعض الثياب.

هزت رأسها بلا اكتراث وقالت:

- لست بحاجة الى ثياب.

وبعد برهة من الصمت عاد يقول:

- يظهر انه ليس لديك ثياب كثيرة. دعيني اشتري لك بعض الثياب الجميلة.

ألقت عليه نظرة احتقار واضحة. كانت تلك المرة الأولى التي استطاعت ان تظهر احتقارها له، واعتبرتها جزءاً من ثقتها المتزايدة بنفسها. واجابت:

- ثياب جميلة؟ من اجل ان تقف امامي لتبدي الاعجاب؟ انا لست دمية تلهو بها. فكبريائي القليلة تمنعني من ارتداء ثياب تكشف لك اشياء تتمتع برؤيتها.

لمعت عيناه السوداوان فجأة، فتناول فنجانه بيد مرتجفة وقال:

- دمية؟ اهكذا تنظرين الى نفسك؟

- أليست هذه نظرتك اليّ؟

لم يجب فوراً لأنه اعتبر كلامها مسيئاً لكرامته. واخيراً سألها:

- وكيف تعرفين ما يجول بفكري؟

- افترضت انك عنيت الأشياء التي ترتديها النساء من اجل ازواجهن.

علق بشيء من السخرية:

- يظهر انك تعرفين نوع الملابس التي ترتديها النساء من اجل ازواجهن.

ثم أضاف:

- متى تعلمت ذلك؟

- كنت اعرف ماذا يجب علي ان ارتدي من اجل جويل.

قالت ذلك وصمتت برهة تفكر. الكلام الذي قالته ليس في موضعه ومليء بمخاطرة غير ضرورية. اتسعت عيناها عندما لمحت على وجهه علامات السخط بانتظار رد فعله.

تطلع نحوها وقال بحسرة ظاهرة:

- انظري يا روكسان. انك ستندمين على هذه الملاحظات المهينة التي لا

توقفين عن ابدائها. انا زوجك، وكلما اسرعت في تقبل ذلك تجعلين حياتك اكثر راحة وهناء. فلا تركبي المخاطر فتندمي.

كانت روكسان تتوقع جواباً عنيفاً، وخوفاً من حصول ذلك لم تزد بل صمتت وعادت لتفرغ مزيداً من القهوة من الابريق الفضي الموضوع امامها. وبعد فترة، تكلم خوان بهدوء ليعلمها بانه يريدها ان ترافقه الى المدينة صبيحة اليوم التالي. واضاف:

- وستشترين بعضاً من الاشياء الجميلة التي يحب زوجك ان يراها.
- انت تأمرني بان اذهب الى المدينة برفقتك.

هز رأسه موافقاً واجاب:

- ان كان هذا ما تبغين يا روكسان، اجل، انه امر.

اخذت تفكر كيف سيكون رد فعلها لو انها مثل احدى النساء اللواتي يتمتعن بارادة قوية مثل كلير مثلاً. كلير كانت تقول دائماً انها لن تدع رجلا يتحكم بها. هل بامكان كلير ان تتحدى رجلاً مثل خوان؟ لا. ليس هناك من امرأة تستطيع ان تصمد امام جبروت هذا الرجل الأسمر، هذا الرجل الذي يدعوه الجميع بالنسر الأسود. وجدت عينا روكسان تتأملان قسمات ذلك الوجه الشبيه بوجه النسر الذي يكتسي، في قمة الغضب، بقناع شر عميق يجعلها تهرب منه مرتجفة. وكان خوان في تلك الحالات يتركها وشأنها ثم يحاول بعدها اشاعة جو من الاطمئنان حولها ليزيل تلك الصورة من مخيلتها. الا ان شيئاً لم يستطع ازالة تلك الصورة لأنها تعودت ان تلجأ في كل مرة الى امور تذكرها بخيانته لها، تلك الخيانة التي كانت تقوي في نفسها الكراهية نحوه ولم تساعدها على الاقتراب لحظة من حدود التسامح.

بعد انتهائه من شرب القهوة، نهض عن كرسيه واتجه الى غرفة صغيرة كان يشغلها كثيراً. روكسان لم تعرف بعد ما اذا كانت تلك الحجرة هي للجلوس ام انه يستعملها كمكتب خاص. ولم تهتم ان تعرف. اما هي فذهبت لتقضي وقتها في الحديقة وعادت الى غرفة النوم وجلست قرب النافذة تطالع كتاباً وتستمتع بزقزقة العصافير في الخارج، بينما رائحة الازهار تفوح في كل مكان. كان الوقت ربيعاً، وروكسان جالسة قرب النافذة تمتع النظر بالشجرة القريبة المكسوة ببراعم بنفسجية مائلة نحو الزرقة. وفي البعيد كانت جميع الطرق المؤدية الى المنزل تشبه لوحة طبيعية

تمتزج فيها الألوان بينها الأرض مكسوة بحلة خضراء. وخلف ذلك انتصبت الجبال تعرض صدرها للشمس الدافئة ويغرق تحتها ذلك الوادي الجميل، حيث تبدو رمال شاطيء اكابولكو الذهبية، ذلك الشاطيء الذي دعاها خوان لزيارته لكنها رفضت، مفضلة ان تذهب الى هناك بنفسها في يوم من الأيام. في هذه اللحظة سمعت روكسان صوتاً هادئاً يناديها:

- سنيورا.

كانت ما تزال جالسة الى الطاولة الصغيرة، تسبح في بحر من الأفكار عندما سمعت الخادمة لوبيتا تناديها فأجابت:

- نعم.

قالت لوبيتا:

- ان كنت قد انتهيت فسوف ارفع الصينية.

فسألتها روكسان باستعلاء:

- وأين لويس؟

فقالت بلهجة وقحة:

- تعلمين يا سنيورا ان هذا اليوم يوم عطلته.

ثم مدت يديها لتناول الطبق، فصاحت بها روكسان:

- لم انته بعد.

تناولت الوعاء الفضي وسكبت بعضاً من بقاياه الباردة في الفنجان:
جمدت لوبيتا في مكانها ثم قالت:

- المعذرة يا سنيورا. هذه القهوة باردة. أتريدين ان اجلب لك غيرها؟

تطلعت روكسان في فنجانها وقالت:

- انها جيدة، شكراً لك. بامكانك الذهاب الآن.

بقيت عينا المرأة الرماديتا اللون مثبتتين على روكسان ثم اردفت تقول:

- انت امرأة ذات كبرياء، جميع الانكليزيات كذلك.

لم تعد روكسان تتحمل وجودها اكثر، وبلهجة آمرة وصوت بدت نبراته عالية ومختلفة صرخت قائلة:

- اخرجي من هنا، ولا تعودي الا بعد ان اغادر الغرفة.

برمت العجوز شفتيها، وقامت بانحناءة وغادرت الغرفة. تبعتها روكسان في الحال واغلقت الباب خلفها، ثم جلست تفكر في ذلك الباب

الذي يقود الى غرفة زوجها. لم ترها من الداخل بعد. تحركت دون تردد وفتحته، فاحدث صريراً جعلها تقف مقشعرة، وهو نفس الصرير الذي كان يحدثه في كل مرة يدخل زوجها غرفتها.

وقفت مدة طويلة تتفحص تلك الغرفة... ذلك السرير الخشبي الكبير وتلك الطاولة الموضوعة قرب نافذة تطل على المساحة المحيطة بالمنزل وتشرف على الجبال. دخلت الغرفة اخيراً ووقفت امام الطاولة وعيناها تحدقان في درجها الأوسط المقفل، فشدته قليلاً واذا به ينفتح امامها لتشاهد في داخله مشبكاً ذهبياً لربطة عنق وازراراً ذهبية وملفاً لفت نظرها. تفحصته قليلاً ثم ردته واغلقت الدرج. عند عودتها الى حجرتها كادت تسقط على الأرض فزعاً حينما وقعت عيناها على وجه لوبيتا الساخر. قالت لها:

- ماذا تعملين هنا؟ اخرجي فوراً!

فأجابت لوبيتا:

- لقد جئتك يا سنيورا بالبريد الذي وصل الآن. رسالتان موضوعتان على طاولتك.

التفتت روكسان نحو الطاولة الموضوعة في زاوية الحجرة وقالت:

- شكراً.

ثم اشارت عليها بالخروج. فقالت العجوز:

- فضولك دعاك لمعرفة محتويات ملف الدون خوان.

وقبل ان تجيب روكسان اضافت لوبيتا:

- انها صور يا سنيورا ... صور.

ثم تركت الغرفة واغلقت الباب خلفها دون ضجة. ألقت روكسان بصعوبة نظرة على باب غرفة خوان وهزت كتفيها، ثم اتجهت نحو الطاولة واخذت رسالة ديبورا وبدأت تقرأ:

عزيزتي روكسان:

« آمل ان تصل رسالتي هذه وانت تنعمين بالخير والسعادة. حزنت بعد قراءتي رسالتك الأخيرة الا ان والدك وانا، لم نشعر بالندم على ما قمنا به. هناك يا عزيزتي، طريق واحدة صحيحة، وهي ان تتزوجي الرجل الذي تستطيعين ان تمنحيه نفسك. ليس بمقدورنا عمل شيء رغم السعادة التي

كانت تغمرك مع جويل. بالمناسبة قام بزيارتنا يوم الجمعة عندما كان والدك في رحلة عمل في الخارج. لم يذكرك ابداً. وجدته هزيلاً اكثر من الماضي. اعتقد ان صحته ستعود اليه... الرجال عادة هكذا. انتبهي لنفسك يا طفلتي واكتبي قريباً.

المحبة لك دائماً

ديبورا »

كان هذا كل شيء. عضت على شفتها بقوة محاولة بصعوبة صد دموعها واخذت ترثي حالها، اذ شعرت بأن الجميع هجروها في ساعة احتياجها اليهم. كانت في حاجة الى رسائل من الأهل تشعرها بالقليل من الراحة. كان بامكان ديبورا ان تقول اكثر. اعادت روكسان قراءة الرسالة وفي هذه المرة لم تستطع حبس دمعة حارة. اعادت الرسالة الى الظرف وبينما هي تهم بفتح رسالة والدها اذا بها تسمع حركة في غرفة خوان. وقبل ان تقف لتستطلع السبب، انفتح الباب واذا بزوجها يقف فيه ويسأل بحيرة:

- هل كان احد هنا؟

هزت روكسان رأسها وقالت:

- لا. لا افهم ماذا تعني؟

- دقت لوبيتا على باب مكتبي لتتأكد من وجودي هناك. في تلك اللحظة كان شخص ما في غرفتي استطاعت ان تسمع خطواته من غرفة الجلوس.

مرت برهة صمت، وهي تفكر بالصور وتستعيد بسرعة ما حدث وقالت:

- وهل بامكانها سماع اصوات كتلك بوضوح؟ فسقف حجرة الجلوس عال وغرفتك مغطاة بسجادة كثيفة. لا بد ان حاسة السمع لدى لوبيتا فوق العادة لتشعر بوجود احد ما، في غرفتك.

- انا نفسي اعتقدت ذلك غريباً. وكما تقولين، يجب ان يكون سمع لوبيتا فوق العادة.

ثم هز كتفيه علامة اللامبالاة وتراجع مغلقاً الباب خلفه.

استرخت روكسان على كرسيها تحمل رسالة والدها في يدها وهي تفكر. ان لوبيتا تحاول ان توقع روكسان في الفخ لأنها ذكرت لها عمداً موضوع الصور الموجودة في الملف. وهي واثقة من ان روكسان ستحاول العودة الى

غرفة خوان مرة اخرى لتدقق في صور تلك الصبية التي احبها خوان وما يزال، الأمر الذي كانت روكسان تعتقد به فعلاً. وبعد برهة قررت التخلي عن هذه الافكار كي تقرأ رسالة والدها.

لم تحتو الرسالة على اية اخبار. كانت قصيرة تنقصها العاطفة الحقيقية، تماماً مثل رسالة ديبورا. وضعت يديها على وجهها واخذت تبكي ليس لأن الرسائل لم تحتو اشياء تود سماعها، بل لأن والدها وديبورا، كليهما يعتقدان بأنها خذلتهما بذهابها مع شخص كانت قد تعرفت اليه قبل ايام فقط.

وبينما هي تسبح في بحر من الدموع تستعيد تلك اللحظات المريعة من حياتها وجدت نفسها تقف الآن حائرة امام واقع مؤلم جديد يكاد يدمر حياتها كلها، وسببه الوحيد ذلك الشبه الكبير بينها وبين خطيبة خوان السابقة. وراحت تتذكر كيف قال لها: «تصبحين على خير» بعد آخر رقصة رقصاها سوية «وسوف نلتقي بالقريب». وكان اللقاء في منزلها بالذات وتذكرت كيف فتحت له الباب فوقف عنده ليقول لها بكل برودة:

ـ مساء الخير. . . كنت ماراً من هنا فقررت زيارتك. هل لديك مانع؟

وقفت مبهورة البصر امامه وهزت رأسها.

كانت روكسان وحيدة في المنزل. ديبورا ذهبت لزيارة اختها اما والدها فكان في الخارج في رحلة عمل. خطر ببالها لأول لحظة ان تغلق الباب في وجهه، الا انها حافظت على اعصابها واجابته بكل تهذيب. لم لا تستطيع ان تتذكر ما قالته له بالفعل؟ لكنها متأكدة انها لم تطلب منه الدخول. الشيء الذي تتذكره هو وقوفه بجانبها في حجرة الجلوس حيث طلبت منه ان يجلس ففعل ثم قدمت له قهوة ليأتي بعدها طلبه المشؤوم الذي ادى الى تحطيم حياتها:

ـ بما انك يا روكسان وحيدة مثلي فهل تمانعين في الخروج لتناول العشاء؟

وعند طرحه السؤال فكرت روكسان بخطيبته وبصعوبة الفترة التي مر بها بعد وفاتها. فبالرغم من انها كانت تخافه، اشفقت عليه، ولم تجبه بحزم كما كانت تريد:

ـ آسفة يا خوان، لا يليق بي ان اقبل دعوتك لانني ، كما تعلم، شبه مخطوبة.

اجاب قائلاً:

ـ هنالك فارق بين شبه مخطوبة، ومخطوبة بالفعل.

فكرت روكسان بانه لا بد ان يكون في تلك الشخصية المتزمتة قليل من اللطف. فلهجته الناعمة التي تحدث بها، ونظرته المعبرة، وكلماته المستعطفة التي نطق بها دلت كلها على ذلك وبخاصة حين اضاف:

ـ لن يصيبك اي سوء ان تناولت العشاء معي. فقريباً سأعود الى بلدي، واود ان احمل معي بعض الذكريات الجميلة.

لم تقل شيئاً لبرهة من الوقت. وتذكرت كلماته لها في حفلة كلير واهتمامه الواضح بها، الأمر الذي جعلها ترد ذلك الى الشبه الحاصل بينها وبين خطيبته المتوفية، ثم قالت:

ـ في الواقع لا استطيع. . .

وتوقفت. عيناها البنفسجيتان كانتا تحدقان فيه وكأنهما تلتمسان منه ان يتوقف عن الاصرار. فهي تعرف نفسها جيداً، وتعرف ان عاطفتها لن تسمح لها بأن تحرمه من ساعات قليلة تقضيها برفقته، لأن ديبورا كانت دائماً تحثها على ان لا تفوت فرصة نشر السعادة على الناس اذا سنحت.

وبانت في عينيه السوداوين عذوبة عندما قال:

ـ انك يا روكسان رائعة، وانا اشعر بالغبطة للقاء فتاة مثلك. انه شرف كبير ان اتعرف اليك.

لم تتذكر ان كان الاخلاص الظاهر في قوله وعبارات الاطراء هي التي جعلتها تغير رأيها. كل ما تعرفه هو انها شعرت بأن عليها ان تقبل دعوته رغم انها كانت تخاف اموراً فيه تجهل سببها. طلعت الى غرفتها لتغتسل وتغير ملابسها. وما ان رآها قادمة حتى وقف وقال بابتسامة خجولة:

ـ تبدين رائعة يا عزيزتي.

واقترب كثيراً منها. شعرت بأنفاسه النقية الباردة على وجنتيها ثم جمدت مكانها عندما لمس جبهتها. كادت لحظتها تسيء الظن لو ان الرجل لم يثبتها في مكانها وهي غير راغبة في التحرك او الاحتجاج، او حتى في منعه من وضع المعطف على كتفيها عندما توقفا لحظة في القاعة. فقالت فجأة:

ـ علي ان اترك رسالة لديبورا.

قدم لها خوان قلماً ونزع ورقة من مفكرته كتبت عليها ملاحظة مختصرة

وقالت:

ـ اخبرتها انني خارجة مع صديق. لا ارى جويل ايام الخميس اذ انه يرافق والدته لزيارة شقيقته وتمضية المساء هناك. كان يقوم بذلك قبل ان يتعرف الي فأصبح بالنسبة اليه شبه روتين يجب المحافظة عليه.

ابتسم خوان ولم يقل شيئاً. فقررت ان تمتنع عن ذكر اسم جويل كي يستطيعا قضاء سهرة ممتعة يحمل خوان ذكرياتها معه الى بلده.

اخذها خوان الى افخم واغلى مطعم. وعندما عاد ليوصلها الى البيت في سيارته المستأجرة، شعرت ان تلك الليلة ستظل في ذاكرتها الى وقت طويل. لم تعرف بالضبط متى غمرها ذلك الشعور. اعتقدت انه حصل عندما تعمد عدم اتباع ارشاداتها نحو المنزل وبقي يقود السيارة حتى وصلا الى مكان عرفت فيما بعد انه مكان سكنه. دخلا الشقة وهي في حالة شديدة من الرعب فصرخت:

ـ دعني اذهب.

هز رأسه ولم يجب فأخذت تناشده ان يدعها تذهب فاستمر يرفض ويؤكد لها كل الوقت بانه لن يسيء اليها فقالت:

ـ انك تبغي الاساءة الي، والا لماذا جلبتني الى هنا؟

اجاب:

ـ لانك ملكي يا روكسان. ملكي، هل تسمعين؟ جويل هذا، ليس لك... اريدك زوجة لي. فأنا رجل شريف، وحتى نتزوج لن...

قالت :

ـ رجل شريف؟ كيف تستطيع الوقوف هنا والتصريح بذلك؟

ـ يصعب عليك ان تصدقيني. لكن نيتي شريفة. اريد ان اتزوجك. لقد علمت الكثير عن والدك وطريقة تربيتك. عندما يعلم والدك انك امضيت ليلة معي، سيجبرك على الزواج مني، ليس امامي اية حيلة اخرى.

صمتت مدة من الزمن ولم تجب. كانت تفكر بشيء آخر حولها عن الموضوع ثم سألته:

ـ لماذا جئت الى انكلترا بعد فترة طويلة من التنسك؟

قطب جبينه وقال:

ـ كيف علمت بتنسكي هذا؟

اخبرته روكسان كيف توصلت الى معرفة ذلك. حدق خوان في عينيها الدامعتين وقال:

ـ اطلعني مارتن، عندما كان في زيارتي، على صورة لك. فقررت انه علي... علي ان اراك شخصياً.

حدقت في وجهه وقالت:

ـ خطيبتك...

قاطعها قائلاً:

ـ تعرفين عنها ايضاً.

قال ذلك بلهجة تخلو من العاطفة، الأمر الذي ادهش روكسان التي افترضت انه كان متأثراً من موتها وقالت:

ـ رجل من قرية قريبة منك اخبر مارتن اشياء كثيرة عنك ومارتن اطلع شقيقته عليها بدوره، فاخبرتني هي كل شيء.

حدق فيها ملياً وقال:

ـ كان لديك الاهتمام لتسألي؟

سألت روكسان بعد ان تجنبت الاجابة على ذلك:

ـ انا وخطيبتك السابقة متشابهتان، اليس كذلك؟

اجاب بصراحة:

ـ نعم يا روكسان... نعم.

ـ ولهذا السبب تريدني ان اصبح زوجتك؟

ـ نعم يا روكسان.

شعرت بانها باردة كالثلج. كان هنالك شيء غير صحي في رغبته، شيء جعلها تبتعد عنه وتذهب الى ابعد زاوية في الغرفة. راقبها دون ان يقوم بأي حركة، كونه يعلم سبب تصرفها هذا. وعادت تلتمسه قائلة:

ـ دعني اذهب. اتوسل اليك ان تتركني وشأني.

فقال بدون تردد:

ـ لن ادعك يا روكسان. اريدك ان تكوني زوجتي.

ـ والدي لن يسمح لي بأن اتزوجك. سأخبره بما فعلت ليقتص منك.

اقترب منها وقال:

- هل ستخبريه يا روكسان؟ اتريدين ان اودع السجن؟

كان صوته منخفضاً وعيناه جامدتين، فعجزت روكسان عن اجابته بالطريقة التي كان عليها ان تجيبه بها. شعرت بغموض قوته وسيطرته البارعة عليها.

وقال مضيفاً:

- بما ان والدك سيعلم باننا امضينا هذه الليلة سوياً، فانني اعرض عليك الزواج، كأشرف عمل استطيع فعله، وانت ستقبلين يا روكسان... نعم ستقبلين.

اجابت:

- والدي يعلم انني لن اقوم بعمل كهذا! فانا احب شخصاً اخر.

- اتعتقدين ذلك؟ كلا. فأنت خلقت لي ومصيرانا متصلان. كنت اعلم ذلك منذ اللحظة التي رأيت فيها عينيك الجميلتين. لن تتمكني من الهرب يا روكسان فاقبلي بما كتب.

ذهبت الى غرفة نوم جميلة قدمها اليها خوان، واقفلت على نفسها. تذكرت انها بقيت مستيقظة طوال الليل. فالليلة تلك، كانت بالنسبة اليها، ليلة ابدية لن تنساها مدى العمر. وفي اليوم التالي تأخرا في العودة الى منزلها. وعندما وصلاه، كان والد روكسان قد عاد. لقد علم خوان منها بموعد عودة والدها فتعمد التأخير ليحصل بالنتيجة على ما يريد.

لن تنسى روكسان ابداً ذلك المشهد. حاولت المستحيل كي تقنع والدها وديبورا ببراءتها في كل ما حصل، الا ان تأثير ذلك الأجنبي الأسمر عليها جعلها تتلعثم، وتتصرف بطريقة مناقضة تماماً لصراحتها المعهودة. فبدلاً من اقناعهما ببراءتها اقنعتهما بذنب لم ترتكبه.

- لن تندمي على ما اقدمت عليه.

قال خوان لروكسان في يوم زفافها واضاف:

- انه نصيبك، وانت حكيمة لأنك قبلت به.

٣ - ابتسمي لي

في صبيحة اليوم التالي كانت روكسان تجلس بالقرب من خوان وهو يقود سيارته الكبيرة في البلدة. انزلها امام بعض المحلات واعداً ان يلتقيها بعد ساعتين تقريباً وقال:

- سنتناول الغداء وبعدها نقوم بشراء بعض الحاجيات الاخرى.

لم تجب روكسان. كانت تحدق فيه غير مبالية، ومن نافذة السيارة قال:

- انتبهي لنفسك من السيارات فهي كثيرة في مثل هذا الوقت.

اجابت:

- لا تقلق، فلن ادعها تدهسني.

ثم تابعت:

- ألست خائفاً ان اهرب؟ هل تعلم انك اعطيتني كثيراً من المال؟

اجاب وهو يهز برأسه:

- لست خائفاً ان تهربي مني يا روكسان. ألم أقل لك منذ البداية ان مصيرنا واحد؟ هو كذلك الآن اكثر من اي وقت مضى. لن نفترق يا عزيزتي، ولو انك تؤمنين بهذا كما اؤمن به، تكونين اسعد.

اجابت بسرعة:

- اسعد من ماذا؟ فالمقارنة مضحكة.

وقبل ان يطلق لسيارته العنان ويختفي قال:

- لا اريد مجادلتك في هذا الوقت. لدي اجتماع عمل بعد عشر دقائق. تمتعي بوقتك والى اللقاء.

اتجهت الى اقرب مخزن وهي تفكر بما قال. الى اية درجة هو واثق من انها

لن تتركه! تذكرت فجأة ان جواز سفرها ما يزال في حوزته فأحست بانها اسيرة في هذه البلاد الغريبة القاسية.

ثم تجولت في المكان ولم تشتر شيئاً، ليقينها من ان خوان سيجبرها على الشراء عندما يعود. خرجت من المخزن وراحت تتمشى في الشوارع الضيقة حيث يقف بائعو الفواكه والخضار، ثم اخذت تتأمل وجوه المارة والوانهم. خليط عجيب من الألوان. جلد كالقهوة والحليب، آخر اصفر قذر، وبشرات بيضاء ايضاً.

لم يمض وقت طويل حتى وجدت نفسها امام دكان صغير لمحت فيه شخصاً ابيض اللون، ولشدة استغرابه دخلت المحل وقالت للرجل:

ـ انت انكليزي.

وقبل ان يجيب تابعت:

ـ انت صاحب هذا المحل.

حدقت في الكتب الموضوعة على الرفوف وكان بعضها باللغة الانكليزية. نظر اليها الرجل بفضول وقال:

ـ تركت عملي في موطني وجئت الى هنا. انا الآن مكسيكي الجنسية.

اجابت بدهشة:

ـ صحيح؟ وهل انت مسرور هنا؟

ـ جداً. لن اترك هذا البلد لقاء اي شيء.

ثم صمت برهة ليسأل:

ـ من انت؟و وماذا تعملين هنا؟

اجابت بقليل من الصعوبة والتردد كونها المرة الأولى التي تأتي فيها على سيرة زوجها:

ـ انا متزوجة من مكسيكي.

ـ منذ متى؟

ـ منذ شهرين وبضعة ايام.

ـ اعتقد انك لم تعتادي على الحياة هنا بعد.

ـ كل شيء هنا مختلف.

لم تقل اكثر من ذلك فهي لم تخرج من المزرعة كثيراً، وتلك كانت اول مرة تذهب فيها الى البلدة.

ـ ستحبين هذا المكان بمجرد ان تعتادي عليه. المسألة تأخذ بعض الوقت، وهذا ينطبق على كل مكان جديد ينزح اليه الانسان.

اخذا يتفحصان بعضهما البعض. كان لطيف المحيا، معتدل الطول والجسم، ذا شعر بني فاتح اللون وعينين بين الاخضر والرمادي. ابتسم لها فجأة عندما رآها تحدق فيه. احمر وجهها خجلاً وادارت وجهها عنه، قائلة:

ـ اريد شراء كتاب.

وبينما هي في طريقها الى احد الرفوف، سألها:

ـ اين تسكنين؟

ـ في الريف. . . في مزرعة راميريز. لا اعتقد انك سمعت بالمكان.

قالت ذلك وقد غمرتها سعادة غريبة لملاقاتها هذا الانكليزي الذي قد يصبح صديقاً لها في هذه البلاد الغريبة. فقال:

ـ في . . .

توقف وحدق فيها ملياً وتابع:

ـ مكان راميريز العجوز؟ هل غادر الحياة اخيراً؟ لا احسبه باع منزله لأنه في حوزة العائلة منذ اجيال.

نهضت بغضب لا واع:

ـ هو ليس عجوزاً. . . عمر زوجي ثلاثة وثلاثون عاماً فقط!

ـ زوجك؟ هل تتكلمين عن دون خوان؟

ـ نعم.

قطب حاجبيه وقال:

ـ ليس متزوجاً. . . هذا غير ممكن.

قالت بهدوء:

ـ انا زوجته.

هز الرجل رأسه علامة الذهول وقال:

ـ هل تمانعين بالشرح؟ لكن قبل ذلك، اود ان اخبرك من اكون، فانا توم. . . توم وكيفيلد عمري اكثر من واحد وعشرين واقل من ثلاثين. اعزب. والآن اخبريني كيف توصلت الى الزواج من هذا . . . العجوز.

توقف لحظة واضاف:

- متأسف، الا ان دون خوان راميريز كان متنسكاً لسنوات عديدة. هل تعلمين ذلك؟

هزت رأسها وقالت:

- كان خاطباً وتوفيت خطيبته.

توقفت قليلاً وتساءلت في نفسها كيف تتكلم هكذا مع رجل تعرفت لتوها اليه. ربما لأنه من بلدها، وطبعاً بسبب شعورها العميق بالوحدة. انه لجميل ان تستمع الى شخص، غير زوجها، يتكلم لغتها.

قال:

- هذا صحيح. ان تنسكه جعله يظهر دائماً بمظهر الرجل العجوز. لا يستطيع المرء ان يتصور كيف ينغلق شاب على نفسه كل هذا الوقت.

- لقد فعل ذلك مدة عشرة اعوام متواصلة.

- بالله اخبريني كيف التقيت به؟

- خلال اجازة في انكلترا.

كذبة بيضاء لكنها لم تملك القدرة على القول بأنه ذهب الى هناك خصيصاً ليتعرف اليها، وليحملها معه بعيداً عن بيتها واهلها وحبيبها.

فقال توم:

- قصة غريبة! الجميع كانوا يعتقدون انه لن يخرج من ذلك المنزل ابداً. والآن تزوج، انها قصة ممتعة ذات نهاية سعيدة.

اجابت روكسان على الفور:

- نعم... انها قصة ممتعة كما تقول.

- انت اذن السنيورا راميريز. ما هو اسمك الأول؟

- روكسان.

- اسم جميل... احسب ان زوجك يناديك روكسي.

- لا.

- أأقدر انا؟

- في الواقع لا احب هذا التدليل.

بدأت تدرك ان المحادثة قد تخطت كثيراً طابع الرسميات وكانت سعيدة لملاقاة توم فلم تعد تكترث لطبيعة الكلام.

وعاد توم يسألها:

- اين زوجك الآن؟

- يقوم ببعض الاشغال وسألتقيه للغداء.

القى توم نظرة على ساعته وقال:

- الساعة للآن تقارب الواحدة.

- صحيح؟

قالتها لاهثة واضافت:

- يجب ان اذهب.

قال صارخاً:

- عروس متشوقة. لا تنسي ان تعودي مرة اخرى.

اجابت وهي تغادر المكتبة مسرعة:

- لن انسى.

وتذكرت بعد ذلك انها لم تشتر شيئاً منه!

كان خوان بانتظارها في المكان الموعود. لمحته من بعيد. اخذ قلبها يخفق اضطراباً فغضبت على نفسها. انها ما تزال تخاف استياءه وعدم رضاه. ليتها تستطيع ان تستعيد الثقة بنفسها لتطرد الخوف.

وعندما وصلت كانت تلهث فوقفت بجانبه. القى عليها نظرة استغراب وقال:

- لم تشتري شيئاً. ماذا كنت تفعلين كل هذا الوقت؟

بلعت روكسان ريقها وقالت:

- كنت اتمشى واشاهد المناظر..

وبصوت هادىء سأل:

- اية مشاهد؟

- الناس، وعربات الخضر والفواكه وكل شيء.

تبع ذلك صمت ثم قال:

- هل زرت تلك المكتبة يا روكسان؟

تغير لونها وقفزت لتقول:

- نعم. زرتها في الواقع.

- وهل امضيت كل الوقت هناك؟

- ليس كله. تجولت في ذلك المخزن ثم تمشيت... و...

قال مقاطعاً:
- والتقيت ذلك الانكليزي؟
- السيد ويكفيلد. نعم.

ساد صمت طويل ممل وظهر القلق واضحاً على روكسان. كانت تمسك حقيبتها بعصبية وباصابع مرتجفة. لاحظ خوان ذلك فامسك بيديها بقصد تهدئتها وقال:
- لنذهب ونأكل شيئاً. اعتقد انك جائعة.

اجابت نعم، وغمرها شعور بالارتياح اذ توقف عن ذكر ذلك الانكليزي.

وعندما دخلا الفندق علقت قائلة:
- يظهر انه مكان جيد. اعتقد اني جائعة.

اجاب مذكراً بتهذيب:
- لقد قلت ذلك الآن.

وعندما لم تعلق بشيء اضاف:
- هل كان ذلك مجرد رد فعل عفوي؟

هزت رأسها وقالت:
- اعتقد ذلك.

وبعد ان لمح قليلاً الى زيارتها للمكتبة بكل لطف امتقع لونها وقالت:
- آمل ان لا تكون قد استأت من تحدثي الى السيد ويكفيلد.

ثم اضافت بجرأة:
- سررت بالتحدث الى شخص من بلدي.

قال ببرود:
- اكثر من سرورك بالتحدث الى زوجك.

كانت كلماته تبطن شيئاً جعل اعصاب روكسان ترتعد. كان النادل يشير الى طاولة في الوسط عندما نظر اليه خوان وقال باسلوب فظ:
- نريد مكاناً منعزلاً اكثر.

قال النادل شيئاً بالاسبانية وتحرك نحو طاولة في الزاوية فتبعاه. وبعد ان شكره خوان، جلسا وجهاً لوجه وتابع زوجها يقول:
- لم تجيبي على سؤالي.

استعادت روكسان قليلاً من الجرأة المخزونة بين حناياها وقالت:
- ليس بينك وبيني الا القليل لنتحدث عنه.

فقال موافقاً:
- يظهر اننا لا نستطيع التحادث الى بعضنا البعض. على المرء ان يحاول، وانت لا تريدين ذلك ابداً.
- صحيح. لا اريد المحاولة.
- هل انت راضية بأن تعيشي على هذا النمط من الحياة؟
- افضله على اي شيء آخر في هذه البلاد.

فاجاب وقد تلألأت عيناه:
- البلاد هذه هي موطنك، وكلما اسرعت في ادراك ذلك يكون افضل لك. فصبري يكاد ينفذ. لقد نبهتك مرات عديدة كي تتعقلي يا روكسان. لن ادع احداً...

واكمل وهو يحدق في عينيها:
- ان يعاملني باحتقار. ان زوجتي هي آخر شخص اقبل منها معاملة كهذه. تصرفي في المستقبل باسلوب اكثر احتراماً. أفهمت؟

بارادة قوية استطاعت ان تحافظ على درجة عالية من الكبرياء. يجب عليها ان تحاربه. هذا الخضوع الذي كان نتيجة للطريقة التي تربت عليها، يجب ان ينتهي. ليس بامكانها ان تبقى خاضعة لمشيئة الآخرين طوال حياتها. وللحظة فكرت بجويل. فهو على عكس زوجها. كان دائماً يوبخها على الطريقة السهلة التي تتقبل بها اوامر والدها وديبورا. وقالت لنفسها: ولو لم افتقد قوة الشخصية لما تزوجت هذا الرجل. لا توجد هناك فتاة في عمري تقبل بأن تخضع رغباتها لمشيئة الآخرين».

نظرت الى الرجل الجالس امامها وهو ما زال يحدق فيها. العجرفة والقوة باديتان على وجهه. قالت:
- انا لست مدينة لك بأي احترام. لقد خدعتني بطريقة مجرمة، كذبت على والدي ونلت... نلت ما تشتهي. حصلت على حقوق اعتقدت بانك تمتلكها، انها الخسة بعينها.

ثم توقفت لتنظر اليه معجبة بنفسها وبشجاعتها. فهي تتحسن يوماً بعد يوم. انها تمتلك الآن الجرأة والصدق في العزيمة. صحيح انها كانت تسير

بمعدل خطوتين الى الأمام مقابل خطوة الى الوراء، غير ان ذلك يعد ربحاً في اي حال. وتابعت:

ـ اعلم انك قانون قائم بذاته، الا انني لست على استعداد للخضوع لهذا القانون.

كانت شرارات الغضب تتطاير من عينيه السوداوين ويده مثبتة الى الطاولة، بينما روكسان تحاول التمسك بشجاعتها التي اخذ بعض منها بالانهيار. فسيطرة خوان عليها كانت قوية جداً ونظرته كافية لأن تهتز لها اقوى القلوب. كانت تلك احدى اللحظات التي لو حصلت داخل المنزل لهربت منه.

قال بصوت يهتز غضباً:

ـ ستخضعين لهذا القانون يا روكسان.

اخذت دقات قلبها تخفق بألم وهي تفكر في نيته بأن يجعل امر خضوعها الكلي له حقيقة لا مفر منها. واضاف:

ـ انني اعلم ما هو حق لي وحق لك. فمصيرنا تقرر منذ زمن بعيد وبعيد جداً، انت تعلمين كل هذا. بالنسبة الى حقوق كما تدعينها.. طبعاً انا متمسك بها، وذلك لسبب بسيط هو انك لم تأتي الي بملء ارادتك.

انفجرت روكسان غضباً بعد ان استعادت قسطاً من شجاعتها وقالت:

ـ كيف تتوقعني ان افعل ذلك؟ ان تفترض بانني اسعى وراء اهتمامك وانتباهك؟ انه لشيء سخيف.

تلون وجهها ارتباكاً وادارت وجهها عنه، لتسمعه يقول لها بنعومة:

ـ اخفضي صوتك يا روكسان. فانا احتقر النساء اللواتي يصرخن.

زاد التوبيخ وجهها احمراراً. فردت بانها لم تصرخ ثم اضافت وهي تتناول قائمة الطعام التي دفعها خوان صوبها:

ـ انك تبالغ. وانا لست جائعة بعد الآن.

اخذتها الذاكرة بعيداً الى انكلترا، الى ذلك المطعم الذي كانت تجلس في احدى زواياه مع جويل لتقول وهي ترتجف معيدة قائمة الطعام الى خوان:

ـ لا... لا اريد ان آكل اي شيء.

وبصوت خال من اي اثر للغضب امسك بذقنها ورفع رأسها بيده

وقال:

ـ انظري الي يا روكسان.

اهابت بها الغريزة ان تدير رأسها عنه الا انها توقفت مخافة اثارة غضبه والغوص في مشاكل اكثر، في مكان عام كهذا، فتركت يده ونظرت اليه والدموع تغمر عينيها، دون ان تبدي اية حركة. وتساءلت، احقيقة ما ترى وتسمع، ام انها في خيال؟ لقد احتارت في امره. عيناه تحولتا الى كتلة من اللطف والسلاسة. وقال بصوت مليء بالعاطفة والحنان:

ـ انت تبكين يا روكسان. لا تبكي يا طفلتي، فلا حاجة لذلك.

اجابت بصوت مرتجف جدير بالشفقة:

ـ هذا ما تعتقده انت. اما انا، فلدي الكثير لأبكي عليه.

سحب خوان يده، وبصورة عفوية نظر الى اصابعه كأنه يحاول التفتيش عن شيء وقال:

ـ ما هي الاشياء التي تبكين عليها؟

فاجابت، وقد علت لصوتها رنته الطبيعية الناعمة:

ـ تعلم يا خوان انك ابعدتني عن بيتي واهلي واصحابي وعن... عن الرجل الذي احب.

استدار خوان بسرعة. واذا بالنادل يظهر قريباً منه. ناداه، وطلب منه زجاجة شراب. ثم تطلع نحو روكسان وقال:

ـ وهل ستمضين حياتك كلها وانت متعلقة بالماضي؟

ـ طبعاً.

قال باصرار:

ـ امامك مستقبل وعليك تقبل ذلك كحقيقة.

اجابته بكسل ظاهر:

ـ ليس امامي اي مستقبل ولا حاضر ايضاً.

صمت لبرهة فاعتقدت انه يزدرد شيئاً ثم قال بلهجة خلت من النعومة:

ـ عليك ان تحاولي. فالحياة طويلة وقد يكتنفها سأم لا يطاق...

فادركت روكسان انه انتقل الى الماضي، حيث كان يعيش في وحدته القاتلة، تلك الوحدة التي جعلت جميع الناس حوله يصفونه بالعجوز. عشرة اعوام بعيداً عن العالم الذي يحيطه. كم كان مقدار حبه لمارتا عظيماً،

تلك الفتاة التي تجمعها بروكسان صفات عديدة. ثم فكرت بمارتن وبالصور العديدة التي اخذها لها وتساءلت، اي من الصور ايقظت الرغبة لدى خوان، ليستيقظ من سباته ويتخلى عن تنسكه سعياً وراء الحصول على حبيبته التي افتقدها؟ اثارتها هذه الفكرة اذ تخيلت ان خوان كان يستغلها ويعايشها معتقداً بانه يعايش الفتاة التي ماتت قبل اكثر من عشر سنوات.

ـ نعم يا روكسان.

قال خوان وهو ينتشلها من تلك التصورات المؤلمة:

ـ فالحياة قد تكون طويلة ومملة بشكل لا يطاق. الا اننا نستطيع ان نحولها الى الجنة التي نريد بمجرد المحاولة سوياً.

كلماته تلك اذهلت روكسان اذ انها لا تنسجم مع تفكيرها تجاه ذلك الرجل الذي يستغلها ليغذي شوقاً دفيناً لاخرى. تسمرت عيناها بزوجها لمدة طويلة دون ان تتكلم وقالت اخيراً:

ـ لن يكون لنا امل فانا احب شخصاً اخر.

وتوقفت قليلاً لتضيف:

ـ وانت كذلك.

كانت الحكمة تقضي عليها بان لا تدخل مارتا في هذا الموضوع اذ ان مجرد ذكر اسمها يؤلم. الغريب في الأمر ان روكسان كانت تريد ان تؤذي خوان باي شكل من الاشكال، الا انها فضلت ان لا تذكر اسم البنت التي تعلق بها وافسدت عليه حياته لمدة طويلة.

وقال بصوت ينم عن السخط والغضب:

ـ ما زلت تحبين جويل؟

اجابت على الفور:

ـ طبعاً. وسأظل احبه.

اطرق هنيهة ثم قال:

ـ مهما يكن الحب قوياً، فانه يزول مع الوقت.

القت عليه نظرة محدقة، اصحيح ان حبه لمارتا سيزول؟ انه لن يزول، وزواجه مني برهان على ذلك. اذ كيف له ان يزول ما دام قد تزوج من فتاة تذكره دائماً بخطيبته التي رحلت؟ وقالت:

ـ ان حبي لجويل قوي ولن يزول ما حييت.

ثم نظرت الى زوجها وهو يتذوق الشراب الموضوع امامه وسكب لها كوباً وقال:

ـ تفضلي اشربي.

ـ لا اريد، لا اريد شيئاً.

اعاد:

ـ اشربي!

فتناولت كوبها وشربت، عندها قال:

ـ ماذا سنأكل الآن؟

واضاف بصوت رشيق النبرات مبتغياً وضع حد للنقاش:

ـ ستأكلين معي يا روكسان. فأنا لن آكل لوحدي.

وبعد ساعة ونصف ساعة، قاما يتجولان في الاسواق. كانت روكسان تسير مع خوان وهي تفكر مندهشة بذلك الغداء الممتع وبالأشياء الكثيرة التي علمتها عنه وعن مزرعته التي ورثها منذ اثنتي عشرة سنة، والمشاريع التي يود القيام بها من اجل تحسينها وتجميلها، كما علمت بان له عدة اخوة واخوات يصغرونه سناً، اضافة الى ابناء عمه الخمسة. فوجئت بهذه المعلومات حيث انها كانت تعتقد بأن خوان وحيد في هذا العالم. ولذلك سألته:

ـ لماذا لا يقوم اخوتك واخواتك بزيارتك؟

اجاب، ملاحظاً انها تعلم سبب تنسكه الطويل:

ـ منعتهم جميعاً من الاقتراب مني اما الآن فهم لن يزوروني قبل تحسن الأمور فيما بيننا.

وعندما همّا بمغادرة المطعم قال:

ـ سنذهب الآن لشراء بعض الاشياء الجميلة لك، وارجو ان لا يكون هناك اي جدل.

عاودت روكسان ميزة الطاعة مع انها كانت تأمل ان تتصرف عكس ذلك، فتقول له بانها لن ترتدي ثياباً حسب ذوقه. الا ان متعة الغداء وشعورها بالتعب من اثارة اية مناقشة لن تؤدي بالنتيجة الى الانتصار عليه، جعلاها تصمت، لتجد نفسها وقد ابتاعت الملابس التي حدثها عنها اضافة الى اربعة فساتين جميلة، دفع ثمنها بعد ان رفض ان يدعها تدفع من

المبلغ الكبير الذي كان قد اعطاها اياه من قبل. ففكرت بان تحتفظ بما لديها من مال لمواجهة اي طارىء قد يحدث. . . كهروبها منه عندما يصبح ذلك ممكناً.

في تلك الليلة ارتدت روكسان كعادتها ثياباً غامقة اللون غير جذابة. وما ان دخلت غرفة الطعام حتى سمعت زوجها يقول:

- اذهبي وغيري هذه الثياب يا روكسان.

رفعت رأسها نحوه قائلة:

- سألبس الثياب الاخرى في مناسبة ثانية.

- ستلبسين واحداً منها الآن. . . الأخضر.

الأخضر؟ هل كان ذلك اللون المفضل عند مارتا؟ اجابته بحدة:

- لا، لن ألبس لوناً اخضر!

فوجىء خوان بعنف كلماتها وجرأتها فتطلع نحوها مقطباً وقال:

- اتؤمنين بالخرافات؟ لماذا لم تقولي ذلك؟ كنا اشترينا شيئاً آخر.

ارتبكت روكسان لدى سماعها ذلك، فتصورها كان خاطئاً. وسرعان ما وجدت نفسها تقول:

- سأذهب لأغير فانا. . . انا لا اؤمن بالخرافات.

وعقب خوان قائلاً:

- ضعي قليلاً من اللون على وجنتيك اذ تبدوان شاحبتين جداً.

انسحبت بخضوع وعادت بعد قليل لتراه ينظر اليها بعينين واسعتين يومض البريق فيهما ثم يخبو. اعتراها شعور غريب. انها النظرة نفسها التي القاها عليها في تلك الليلة التي غيرت مصير حياتها. ماذا تعني؟ هل هي الرغبة في. . . ؟ وتوقفت عن التفكير في انتظار سماع صوت زوجها ثانية.

لأول مرة منذ زواجها، كانت روكسان متشوقة لسماع كلماته:

- زوجتي. . . انك جميلة جداً. تقدمي مني. . .

تقدمت منه بطاعة، وتمتمت مشيرة الى الفستان:

- انه واسع قليلاً. كان علي ان الاحظ ذلك من قبل.

واحاط خصرها بذراعيه، فاحست بدفء يديه على جسمها المرتعد. ثم حول وجهه نحو وجهها وقربه منه اكثر. وبطريقة لا شعورية احست انه مع حبه القديم. . . مارتا. ثم شدها نحوه بغير شفقة وقال:

- ابتسمي لي!

ومرت لحظات مثيرة، لحظات الم مبرح اجتاح كيانها، فتعمدت البرود ودفعته قليلاً عنها. فامسك بها بقوة اكثر وشدها نحوه وهو يصرخ في عينيها الدامعتين:

- ابتسمي لي. اقول لك ابتسمي!

وكانت، كلما ردد تلك الكلمات تشعر ان ظهرها قد قصم. يا الهي! اي نوع من الرجال هو؟ ومن اي قبيلة بربرية اتى؟ واخيراً اطاعت. فافلتها لتجد طريقها نحو كرسي بعيد فتجلس عليه بيضاء اللون مرتجفة تتفحص الرضوض والعلامات التي خلفتها اصابعه، بينما هو ينظر اليها غير مبال بما فعل. في هذه اللحظات فكرت بالمال الذي لديها وبالانكليزي توم وبالهرب وبجواز السفر.

وبحدة سأل:

- بماذا تفكرين؟

- طبعاً، بالطريقة التي عاملتني بها.

قال محذراً:

- تلك الطريقة ما هي بشيء اذا استمريت في تصرفاتك هذه، فانت زوجتي، وعليك ان تتصرفي كباقي النساء. لقد سئمت برودتك المهينة. عليك منذ الآن ان تتصرفي كامرأة وليس كقطعة من الجليد. هل هذا واضح؟

كانت قد استعادت قوتها لتلقي عليه نظرة غاضبة وتقول:

- ان احترامي لنفسي يمنعني من التجاوب. فما عليك سوى تكييف نفسك وفق ما تملك من غير تذمر.

ضاق فم خوان، غير ان آثار الغضب والغطرسة كانت واضحة في نبرات صوته:

- سنرى يا روكسان. الوقت لم يحن بعد لأخذ القرار باخضاعك لمشيئتي. . . . الا انه يقترب جداً. لذلك، انصحك بان تفكري كثيراً قبل ان ترفضي ما حذرتك منه.

٤ - لن تكوني مثلها

كانت تسير وحيدة في شارع سان ميغيل متجهة نحو مكتبة توم. لم تكن روكسان تدري بأن احداً يلاحقها فخوان كان قد غادر في صبيحة ذلك اليوم الى مدينة مكسيكو ليقوم ببعض الأعمال هناك، ولم تتوقع عودته قبل اربعة ايام. كانت فكرة غيابه كافية لتنسيها مأساة الحياة التي تعيش، ومستقبلها الغامض. وما ان وصلت المكتبة حتى حياها توم ودعاها الى دخول غرفة الجلوس قائلاً:

- اجلسي يا روكسان. سأغلق المكتبة بعد ساعة. اتبقين لتناول الغداء معي؟

اجابت:

- بكل سرور يا توم.

استرخت على الكرسي، بينما ذهب توم الى المطبخ لتحضير القهوة. وبعد قليل اتجه نحو مدخل المكتبة ليرى من هناك، ففتح الباب لحظة ثم اغلقه معلقاً:

- امرأة عجوز. يا لها من امرأة بليدة.

رفعت روكسان نظرها وسألت:

- ماذا تعني؟

اجاب:

- ربما ادركت انها في المكان الخطأ اذ فتحت الباب واغلقته مرة ثانية. امثالها لا يبتاعون الكتب. انهم يفتشون عن شيء يأكلونه.

ثم تعب للانتهاء من تحضير القهوة، ولما عاد بها وضع الصينية على

الطاولة امام روكسان وقال:

- استطيع ان اغلق المكتبة الآن فالشغل ليس بكثير.

سألته روكسان:

- انت لا تفتح طيلة النهار، اليس كذلك؟

- نعم احب ان اتمتع ببعض الوقت لنفسي.

وبعد برهة صمت قال:

- هل تودين ان ترافقيني في نزهة بالسيارة؟

فاحت روكسان برعشة خفيفة واجابت بدون تردد:

- بل ارحب بذلك يا توم فانا بحاجة للتغيير.

قال وهو يسكب القهوة:

- الا يأخذك الدون خوان في سيارته؟

- لا احب ابداً مرافقته يا توم.

اومأ برأسه قليلاً ثم قال:

- يظهر انها حياة جحيم هي التي تعيشينها. لماذا لا تتخلين عنه؟

احست روكسان برعشة اخرى تصدر من احشائها. ففي الشهرين الماضيين كانت تحاول، بدون ان يعرف والدها او ديبورا بالأمر، ان تصل الى تلك النتيجة. ومع انها اخبرت توم بكل شيء، وجدته كارهاً لمساعدتها في امر تخليها عن زوجها وهربها. وقالت بحزم:

- اريد ان اتخلى عنه لقاء اي ثمن.

وسرت روكسان عندما رأت توم يومىء برأسه واضافت:

- غير ان جواز سفري ليس بحوزتي.

سأل بدهشة:

- ليس معك؟ واين هو اذن؟

اجابت:

- انه مع خوان.

- تستطيعين الحصول عليه منه بكل تأكيد.

وهزت برأسها قائلة:

- لا اجرؤ على طلبه منه. فهو سيشك بالأمر حالاً.

وبعد برهة تفكير قال توم:

- اعتقد انك على حق.
واضاف:
- هل تريدين تركه حقاً؟
- نعم، اريد يا توم. لن استطيع العيش هكذا فترة اطول.
اطرق هنيهة قبل ان يقول:
- لا ادري كيف تزوجت منه في الدرجة الأولى؟
اجابت والألم يحز نفسها:
- كانت غلطة يا توم. وكما اخبرتك، اجبرني والدي ومربيتي العجوز على ذلك الزواج.
- جميع البنات في عمرك توقفن منذ زمن بعيد عن القيام باعمال كهذه.
فأجابت بلهجة يائسة:
- كنت قد شرحت لك عن القسوة التي سادت طريقة نشأتي. فالمرء يلزمه قسط وافر من الشجاعة ليقف في وجه اناس حكموه مدة طويلة.
قال والدهشة ظاهرة في نبرات صوته:
- وماذا عن جويل... ما كان رأيه بالموضوع؟
- طبعاً، كان الأمر مرهقاً له. كان غاضباً جداً. الا ان اهتمامه بدأ يفتر في الأخير.
تلك هي المرة الأولى التي تعترف روكسان بذلك. فضلت ان تلوم نفسها على ما حدث، لأنها هي التي اشعرت حبيبها بانها تخلت عنه.
سألها توم وعلامات الدهشة ما تزال بادية عليه:
- جويل لم يصدق بانك اقدمت على هذا العمل الشنيع؟
- لقد صدق يا توم.
تابعت بعد ان لاحظته يهز رأسه بعنف:
- تكلم معه والدي في غيابي، والظاهر انه استطاع اقناع جويل بذنبي.
- لا ادري كيف اقتنع. لو كنت انا محله لما اقتنعت.
اجابت على الفور:
- على العكس. كنت انت اقتنعت ايضاً. فالدليل كان واضحاً. لقد اعترفت بانني كنت مع خوان في الفندق. ذلك كان كافياً ليشكل صدمة لاي فرد منهم، خاصة وانني لست البنت التي تخرج مع غرباء. لم يستطع

والدي وديبورا التصور باني فعلت ذلك. انا، انا نفسي لا استطيع تصور ذلك.
نظر اليها توم باستغراب وقال:
- الدون خوان غريب جداً. يظهر ان لديه قوة خاصة عليك لجأ اليها منذ البداية. هل انا على حق؟
اجابت روكسان معترفة بصحة هذا الاستنتاج. وعاد توم ليسأل:
- وهل كذب الدون خوان على والدك؟ لم تكوني واضحة حول هذه النقطة.
لم ترد روكسان الاجابة على هذا السؤال، فهي ما تزال تشعر بالحيرة حياله وتفضل ان لا تضع زوجها في موقف قاتم جداً عندما تتكلم عنه مع توم. انها لا تدين لخوان باي احترام وتكرهه اكثر من اي شيء في الوجود. غير انها تجنبت اعلام توم بحقيقة كذبه على والدها ليحظى بها في النهاية. واجابت:
- كان يحيط الموضوع في ذلك الوقت الغموض والتشوش. في الواقع لا اذكر الكثير. كل ما علمته هو ان والدي كان يقول بأن علي ان اتزوج من خوان.
عندما كانت روكسان تتكلم، كان توم يفكر. لاحظت ذلك في تعابير وجهه. وعندما تكلم اخيراً، نطق بشيء اذهلها وبقيت اصداؤه ترن في اذنيها لوقت طويل جداً:
- هل فكرت يا روكسان بانك لاشعورياً اردت الزواج منه؟
- اردت!
اعادت تلك الكلمة وهي تحدق فيه وتهز رأسها بذهول وبطء. وسرعان ما علقت تلك العبارة في نفس روكسان لتصبح حقيقة لا خلاف حولها. فلو كان ذلك غير صحيح، لماذا لم تنفه حالاً بدلاً من مجرد التأكيد على كلمة «اردت» فقط؟ كان ممكناً ان يعتبر ذلك سخيفاً لو انها ابعدته عنها بالفعل. فهي لم تبد اية معارضة عندما شعرت به يلمس شعرها، وعندما زارها في البيت في غياب والدها وديبورا، لم تمتلك القدرة على طرده من المنزل، بل علاوة على ذلك، رافقته لتناول طعام العشاء. حتى ان اطراءه لها كان ممتعاً لها رغم انها كانت تخافه. ثم انها لم تبدي اي تذمر عندما ارتدت ثيابها ورافقته

الى الفندق لتناول العشاء. وفوق ذلك، شعرت طيلة فترة العشاء بأن حديثه كان ممتعاً وودت لو طال اكثر. وقالت لنفسها، سوف تظل تتذكر ذلك لمدة طويلة من الزمن، وهل هذه الانعكاسات جميعها كانت نتيجة بعض الجاذبية في شخصية الدون خوان اروماندو راميريز المروعة؟ مستحيل... الا انها... قالت اخيراً وهي تركز نظرة حائرة على وجه توم المتيقظ:

- لم اكن اريد الزواج منه ابداً.

واضافت:

- كيف لي ان افعل ذلك وانا مغرمة بجويل؟

ابتسم توم ابتسامة خفيفة وقال:

- كنت مرة مغرماً بفتاة، ثم التقيت بفيليس والآن لست مغرماً بالفتاة الأولى.

- انت متقلب...

وارادت ان تكمل، غير انه هز رأسه مقاطعاً ليقول:

- يا عزيزتي روكسان. علينا ان نواجه الحقيقة. لم اتزوج الفتاة الأولى. فلو فعلت، لكنت ارتكبت خطأ فادحاً.

سألته باهتمام:

- وماذا حدث للفتاة الثانية، فيليس؟

- قررت انها ليست اهلاً للزواج. اذ انها تفضل الاستقلال في حياتها وهي قادرة على تدبير امورها بنفسها. اضيفي الى ذلك، وظيفة جيدة ومعاشاً محترماً. فحينما رفضت فيليس الزواج مني قررت الهجرة. تناولت خريطة العالم لانتقي موطناً آخر، واذ بالاختيار يقع على هذا المكان. فيليس تعرف عنواني ووعدت بان تكتب لي في يوم من الأيام. هي تعلم بانني مستعد للزواج منها متى غيرت فكرها.

اصبح قلب روكسان الرقيق اكثر رقة. وقالت مؤاسية:

- متأسفة يا توم. آمل ان تتزوج من فيليس يوماً ما.

اجاب على الفور:

- وانا آمل ذلك، غير اني لا اعتمد كثيراً على هذا الأمل، فالنساء في هذه الأيام، وفي تلك البقعة من العالم على الخصوص، قد تحررن لدرجة بعيدة

جداً على عكس وضعهن هنا حيث الهيمنة ما تزال شأن الرجال.

لم تعلق روكسان بشيء، فعاد توم الى الموضوع الذي اثاره من قبل قائلاً:

- يظهر برغم كل الذي قلته، انك اردت بالفعل الزواج من الدون خوان.

هزت رأسها قليلاً. فادعاء توم اتى مفاجئاً لها ولم تستطع دحض هذا الزعم بالقوة والتأكيد المطلوبين. قالت بنبرات صادقة:

- اني اكرهه يا توم.

- تكرهينه...؟ المرأة مخلوق عجيب يا روكسان. تعلمت الكثير عنها من الحالتين اللتين حصلتا معي. انها تتشبث بفكرة ما، ولا تتخلى عنها، الا بعد حدوث هزة، او حادثة رهيبة او اي شيء آخر.. لتعود الى عقلها فتدرك ان فكرتها كانت غير صائبة. اعتقد انني اتكلم بغموض. يجوز انك اسأت فهم زوجك.

شعرت روكسان بان آمالها بالهرب قد تبخرت. فاسرعت لتؤكد بانها مصيبة فيما تعتقد واردفت:

- اريد ان اتركه يا توم... ارجوك ان تساعدني.

بعد تردد طويل قال:

- الأفضل الانتظار حتى تتأكدي من شعورك. فاذا بقيت مصممة، سوف اساعدك. لكن يا روكسان، لا تنطقي بشيء عن هذا الأمر لأي كان. لا تريد الدون خوان ان يعلم بشيء فاذا علم، او لاحظ شيئاً عندها تقع المأساة علي وعليك معاً. فهو كما تعلمين، ذو نفوذ كبير هنا. فعلاوة على امتلاكه جميع الاراضي في قريتك يمتلك ايضاً ربع هذه البلدة اضافة الى مزارع السكر وغيرها. لذلك ارجوك ان تحاذري.

اجابت روكسان:

- ليس هناك من احد استطيع التكلم معه، حتى لو اردت ذلك.

شعرت روكسان بمرارة لتطور الأمور بهذا الشكل، اذ انها كانت تسعى للتحرر من زوجها باقرب فرصة. اما الآن فما عليها سوى الانتظار. وعاد توم ليؤكد عليها بان تحاول الحصول على جواز سفرها متجنبة جميع المخاطر، فبدت على وجهها ملامح الحيرة وهي تقول:

- لا اعلم اين يحتفظ به. هل لي ان احصل على جواز غيره؟

- مستحيل. حاولي ان تجديه. كوني لبقة بالسؤال عنه او بالتفتيش عليه.

اجابت روكسان بانها ستفعل ذلك في اليوم التالي. ثم اردفت بعد ان تذكرت امراً ما:

- لا تقلق ان لم آتيك الاسبوع المقبل، فهذه الايام يحب خوان ان يمضي وقتاً اطول في المنزل، وقد اجد صعوبة في مبارحته.

قال في فضول:

- بدأت تفتعلين الاعذار.

اجابت على الفور:

- لم افتعل اي شيء. في كل يوم ارى خوان يدخل غرفة صغيرة، علمت فيما بعد انه يستخدمها كمكتب بعد تناول الفطور ويبقى فيها حتى يحين موعد الغداء ثم يعود اليها حتى يحين موعد العشاء.

صمت توم لحظة ثم سأل:

- وهل غير هذه العادة الآن؟

- بدأ يقوم بذلك الاسبوع الماضي. وقد جئت اليك كما تعلم يوم الخميس بعد ان استقل سيارته قائلاً انه لن يعود قبل السابعة مساء.

استغرق توم في التفكير قليلاً ثم قال:

- جائز ان يكون التغيير مؤقتاً. واضح انه رجل كثير الاشغال، حتى خلال تنسكه لم يهمل اشغاله. اذن، محتمل انه عاد الى عادته في صرف معظم ايامه في العمل.

كان رد فعل روكسان مفاجئاً اذ قالت:

- آمل ان يكون ذلك صحيحاً. كم احب المجيء الى هنا. اشعر باني في بيتي هنا.

تطلعت نحوه بخجل، واضافت:

- آه، كم تمنيت ان نصبح اصدقاء منذ التقيتك لأول مرة وها هي امنيتي تتحقق.

اجابها توم:

- انه لأمر غريب. لقد اعتراني نفس الشعور. كنت اعلم، انه يتوجب

علينا معرفة بعضنا البعض اكثر.

واضاف:

- وبما اننا من نفس البلد كان لا بد من الالتقاء.

ثم اخذ يجمع الفناجين، والقى نظرة على ساعته وقال:

- اريد ان اغلق المحل باكراً اليوم، لنذهب ونتناول الغداء. انه لجميل حقاً ان احظى بك كل هذا الوقت. انت تريدين العودة الى المزرعة في وقت متأخر، اليس كذلك؟

- ليس متأخراً جداً. اود ان اعود في حوالى الساعة العاشرة.

اجاب توم:

- ليكن ذلك.

بعد الغداء، غسلا الصحون واستقلا السيارة. سألها توم عن جويل، فاخبرته كل شيء رغم التأثر الذي بدا واضحاً في صوتها المرتجف وعينيها الدامعتين، ثم صمتت فترة من الزمن اقترح توم على اثرها ان يذهبا الى اكابولكو مضيفاً:

- اعتقد انك لم تزوري هذا المكان بعد؟

- كلا. هل هو بعيد؟

- ليس بعيداً لمن لديه متسع من الوقت. نستطيع ان نسبح لو كان عندك ثوب سباحة.

ان فكرة السباحة في تلك المياه الاستوائية الدافئة هي اجمل ما كانت تحلم به، وبحركة مفاجئة اقترحت على توم ان يتوقف امام اقرب دكان لتشتري ثوب سباحة واضافت:

- اظن اننا سنجد هناك مكاناً للتغيير.

- اكيد.

وبعد فترة توقفا امام دكان لبيع الملابس، فاشترت روكسان ثوباً من قطعة واحدة، ثم قالت:

- بقي علينا ان نشتري بعض المناشف.

وسرعان ما بدت عليها علامات الارتياح عندما علمت بان توم يحتفظ بمنشفة كبيرة في السيارة وبخاصة عندما فكرت بان عليها ان توفر الأموال التي معها لأمر قد يكون اكثر اهمية من المنشفة.

وما هي الا دقائق، حتى كانا يعبران حدائق غناء، مليئة بالاشجار المتنوعة والألوان الساحرة. كانت روكسان تسأل وتتعجب وهي التي اصبح لها في تلك البلاد مدة تزيد على الاربعة شهور وما تزال تجهل كل تلك الأماكن. واخيراً اخذا الطريق المؤدية الى الشاطىء، وعندما وصلا الى هناك، اوقفا السيارة امام احد الفنادق القريبة حيث ظهر صف كبير من الأكواخ التي تستعمل لتغيير الملابس. فصرخت روكسان:

ـ انه مكان رائع.

وما هي الا بضع دقائق حتى قفز كلاهما الى الماء وبدآ يسبحان جنباً الى جنب وروكسان تقول:

ـ لم يخطر ببالي ابداً هذا الصباح بانني ساجد نفسي هنا بعد الظهر. حقاً لم تفكر بذلك ابداً. فأثناء تناول الفطور مع خوان في صبيحة ذلك النهار، بدا خوان مكتئباً صامتاً وبقي كذلك حتى اوشكا على الانتهاء عندما قال:

ـ ماذا ستفعلين في غيابي؟

اجابت على الفور:

ـ سأعمل نفس الاشياء التي اعملها اثناء وجودك.

واردفت:

ـ سأروح عن نفسي بطريقة ما.

التفت خوان اليها وقال:

ـ شعورك بالوحدة هذا امر اتخذته انت بملء ارادتك.

ـ يبقى افضل من مصاحبتك.

اكتفى خوان بحدجها بنظرة قاتلة دون ان يقول شيئاً. لقد اصبح معتاداً على ردود زوجته المعاكسة، وتحولها التدريجي بدأ يصبح اكثر وضوحاً يوماً بعد يوم. وبرغم الخجل الذي كان يبدو عليها في بعض الأحيان، الا ان ثقتها بنفسها كانت تتضاعف وبخاصة انها قريباً ستحتفل بميلادها العشرين. كانت على استعداد دائم للاعتراف بان الشيء الحسن الذي حصل في حياتها هو ابتعادها عن والدها وديبورا لأن كليهما، وعلى طريقته، كان قد سلبها قوة الشخصية والثقة بالنفس. نعم، كان ذلك حسناً، الا ان الأمر السيء كان وجودها مع خوان. فلو تزوجت من جويل لكانت الآن

كالزهرة في اوج تفتحها وليس كما هي الآن، برعماً يكافح كي يزهر. في اي حال التقدم قد حصل، ولم تعد الخلافات بينهما تأتي من طرف واحد. فخوان يحاول عند الضرورة، ان يشعرها بسيطرته، غير انه لم يقف ضد التغيير الذي يحصل لها مما يجعلها تفكر بانه يفضل زوجة تقف في وجهه بعض الشيء. وفيما هي صامتة تفكر بكل هذه الأمور اذ بتوم يقطع عليها حبل ذلك الصمت ليقول:

ـ اراك هادئة جداً يا روكسان.

انقضت ساعة من الزمن وهي راقدة على الرمال الذهبية، بالقرب من طاولة صغيرة مسقوفة، كباقي الطاولات، بسعف النخيل الجميل، تتأمل مياه البحر الزرقاء الدافئة الناعمة وتحدق في البعيد، حيث يمارس هواة التزلج على الماء رياضتهم المفضلة، وتتلفت حولها حيث الشاطىء حافل بالمتنزهين ثم ترفع رأسها نحو سماء صافية زرقاء تتوسطها شمس حارقة ترسل اشعتها الحارة في كل مكان. وكأنها في منتصف حلم، اجابت:

ـ كنت افكر.

انسل قربها على الرمال تاركاً بعض مسافة بينهما وسأل:

ـ بماذا؟ آمل ان لا يكون في امر قد يعطل علينا الاستمتاع بروعة هذا اليوم.

اجابت معترفة:

ـ في خوان. كنت افكر به في الواقع.

ـ خوان؟

قال ذلك ثم غرق في تفكير عميق:

ـ من الواضح انه تغير كثيراً، وبسببك يا روكسان. عليك ان تقري بذلك.

ـ لا افهم، كانه متنسكاً. لم يكن احد يفكر بانه سيعود لمواجهة الحياة مرة اخرى. لقد شرحت لك كيف حدث ذلك، وكيف غادر موطنه وذهب الى انكلترا.

ـ ذهب بعدما رأى رسمك.

ـ وادرك كم وجه الشبه كبير بيني وبين مارتا.

نظر اليها من طرف عينيه وقال:

وما هي الا دقائق، حتى كانا يعبران حدائق غناء، مليئة بالاشجار المتنوعة والألوان الساحرة. كانت روكسان تسأل وتتعجب وهي التي اصبح لها في تلك البلاد مدة تزيد على الاربعة شهور وما تزال تجهل كل تلك الأماكن. واخيراً اخذا الطريق المؤدية الى الشاطىء، وعندما وصلا الى هناك، اوقفا السيارة امام احد الفنادق القريبة حيث ظهر صف كبير من الأكواخ التي تستعمل لتغيير الملابس. فصرخت روكسان:

ـ انه مكان رائع.

وما هي الا بضع دقائق حتى قفز كلاهما الى الماء وبدآ يسبحان جنباً الى جنب وروكسان تقول:

ـ لم يخطر ببالي ابداً هذا الصباح بانني سأجد نفسي هنا بعد الظهر.

حقاً لم تفكر بذلك ابداً. فأثناء تناول الفطور مع خوان في صبيحة ذلك النهار، بدا خوان مكتئباً صامتاً وبقي كذلك حتى اوشكا على الانتهاء عندما قال:

ـ ماذا ستفعلين في غيابي؟

اجابت على الفور:

ـ سأعمل نفس الاشياء التي اعملها اثناء وجودك.

واردفت:

ـ سأروح عن نفسي بطريقة ما.

التفت خوان اليها وقال:

ـ شعورك بالوحدة هذا امر اتخذته انت بملء ارادتك.

ـ يبقى افضل من مصاحبتك.

اكتفى خوان بحدجها بنظرة قاتلة دون ان يقول شيئاً. لقد اصبح معتاداً على ردود زوجته المعاكسة، وتحولها التدريجي بدأ يصبح اكثر وضوحاً يوماً بعد يوم. وبرغم الخجل الذي كان يبدو عليها في بعض الأحيان، الا ان ثقتها بنفسها كانت تتضاعف وبخاصة انها قريباً ستحتفل بميلادها العشرين. كانت على استعداد دائم للاعتراف بان الشيء الحسن الذي حصل في حياتها هو ابتعادها عن والدها وديبورا لأن كليهما، وعلى طريقته، كان قد سلبها قوة الشخصية والثقة بالنفس. نعم، كان ذلك حسناً، الا ان الأمر السيء كان وجودها مع خوان. فلو تزوجت من جويل لكانت الآن

كالزهرة في اوج تفتحها وليس كما هي الآن، برعماً يكافح كي يزهر. في اي حال التقدم قد حصل، ولم تعد الخلافات بينهما تأتي من طرف واحد. فخوان يحاول عند الضرورة، ان يشعرها بسيطرته، غير انه لم يقف ضد التغيير الذي يحصل لها مما يجعلها تفكر بانه يفضل زوجة تقف في وجهه بعض الشيء. وفيما هي صامتة تفكر بكل هذه الأمور اذ بتوم يقطع عليها حبل ذلك الصمت ليقول:

ـ اراك هادئة جداً يا روكسان.

انقضت ساعة من الزمن وهي راقدة على الرمال الذهبية، بالقرب من طاولة صغيرة مسقوفة، كباقي الطاولات، بسعف النخيل الجميل، تتأمل مياه البحر الزرقاء الدافئة الناعمة وتحدق في البعيد، حيث يمارس هواة التزلج على الماء رياضتهم المفضلة، وتتلفت حولها حيث الشاطىء حافل بالمتنزهين ثم ترفع رأسها نحو سماء صافية زرقاء تتوسطها شمس حارقة ترسل اشعتها الحارة في كل مكان. وكأنها في منتصف حلم، اجابت:

ـ كنت افكر.

انسل قربها على الرمال تاركاً بعض مسافة بينهما وسأل:

ـ بماذا؟ آمل ان لا يكون في امر قد يعطل علينا الاستمتاع بروعة هذا اليوم.

اجابت معترفة:

ـ في خوان. كنت افكر به في الواقع.

ـ خوان؟

قال ذلك ثم غرق في تفكير عميق:

ـ من الواضح انه تغير كثيراً، وبسببك يا روكسان. عليك ان تقري بذلك.

ـ لا افهم، كانه متمسكاً. لم يكن احد يفكر بانه سيعود لمواجهة الحياة مرة اخرى. لقد شرحت لك كيف حدث ذلك، وكيف غادر موطنه وذهب الى انكلترا.

ـ ذهب بعدما رأى رسمك.

ـ وادرك كم وجه الشبه كبير بيني وبين مارتا.

نظر اليها من طرف عينيه وقال:

- هل انت متأكدة بانك تشبهينها؟
- طبعاً متأكدة، لقد اعترف خوان بان ذلك كان السبب لزواجه مني. بالاضافة، فقد شاهدت رسماً لمارتا.
- ارتك اياها تلك المشعوذة؟
فسألت روكسان باهتمام:
- كيف تعلم بانها تشبه المشعوذين؟
- من الناس فالناس تحكي كثيراً. يظهر ان لويتا تعلقت بمارتا لانها كانت تعمل عند والدتها، وقد حضرت ولادة مارتا. الجميع يتساءل لماذا تركت لويتا عائلتها وذهبت لتشتغل عند عائلة راميريز. كان والد زوجك حياً في ذلك الوقت. الغريب في الأمر هو احتفاظها بعلاقات ودية وطيدة مع والدة مارتا. والناس يتذكرون كيف كانت تمضي اوقات فراغها في منزل والدة مارتا تلاعب الطفلة وتقود عربتها. البعض يقول، انه نتيجة تعلقها بالطفلة، اجبرت على الابتعاد عنها، الا ان هذا الأمر لا يتفق مع الواقع حيث ان علاقاتها مع اهل مارتا بقيت على ما يرام لا تشوبها اية شائبة. كما يقال ايضاً انها اصيبت بالاغماء مدة من الزمن بعد وفاة مارتا وبقيت بعد ذلك مريضة لفترة طويلة جداً. كل هذا الوقت، كان الدون خوان رائعاً بمعاملته لها.

سألت روكسان بفضول:
- ومنذ متى تعلم كل هذا؟ انت لم تذكره لي من قبل.
اجاب توم معترفاً:
- قصتك اثارت حب الاستطلاع في نفسي، وما ان جاء الى هنا رجل عجوز يعمل في مزرعة الدون خوان حتى وضعت امامه بعض الاسئلة، وبدقائق قليلة اجاب عليها كلها وهو الذي قال بان لويتا كالمشعوذين.
- هل تعلم ما عمرها؟
- في اواخر الخمسينات، ليس اكثر، مع انها تبدو اكثر من ذلك بكثير.
اومأت روكسان برأسها وقالت:
- انها مروعة. في بعض الأحيان اشعر ان حياتي تكون سعيدة لو تختفي عن وجهي. اتعجب، لماذا لا تتقاعد؟

- لانها تعيش في بيت مريح في المزرعة، وربما ليس لديها مكان آخر تذهب اليه.
- هل ما تزال والدة مارتا على قيد الحياة؟
- توفيت نتيجة الصدمة التي سببتها لها وفاة مارتا.
اكفهر وجه روكسان وقالت:
- يا لها من قصة محزنة.
قال توم بوجه عابس:
- محزنة لكنها غريبة نوعاً ما.
ثم رفع نفسه قليلاً عن الارض ونظر الى الافق مضيفاً:
- امور عديدة حدثت، موت الفتاة نفسها ثم وفاة الوالدة ثم مرض لويتا واخيراً تصرف الدون خوان الغريب. انا افهم، ان يرتاح فترة من الزمن بعد الذي حدث، وليس عشر سنوات كاملة. في الحقيقة، هذا شيء مستهجن.
- في بعض الأحيان اشعر ان مارتا ما تزال...
وتوقفت دون ان تكمل مدركة غرابة الكلمات التي اوشكت ان تنطق بها... غير ان توم حاول ان يكمل عنها مستفهماً:
- شبحها يلازم المكان. اهذا ما عنيت؟
لم يدرك توم سبب توقفها المفاجيء عن الكلام غير انها سارعت في الاجابة عن تساؤله وقالت:
- يظهر ان حضورها يلازم المكان، في بعض المناسبات وليس دائماً.
صمت برهة يفكر ثم سأل:
- عندما تكون لويتا موجودة؟
اجابت، وقد تغضن جبينها:
- نعم، نعم يا توم في حضورها فقط.
نظر اليها توم بحدة قائلاً:
- هذا يفسر كل شيء، انها تبغي تذكيرك بمارتا، فهي التي ارتك رسمها. اليس كذلك؟
لم تعلق روكسان بشيء فاردف توم قائلاً:
- لماذا جاءت اليك بالرسم يا روكسان؟

- هي التي بدأت الموضوع. فبينما كنت في احد الأيام جالسة في الحديقة، اتجهت لوبيتا نحوي وبدأت الكلام دون ان ابدي لها امارات التشجيع... اذ انني منذ المرة الأولى التي شاهدتها فيها لم احتملها... فهي كما يظهر شريرة نوعاً ما.

توقفت روكسان عن الكلام، ثم هزت كتفيها بلا اكتراث. فلوبيتا كانت الرفيق المناسب لخوان طوال السنوات التي عاشها متنسكاً. واردفت تقول:

- تكلمت عن مارتا وهكذا علمت باسم الفتاة، وتكلمت عن جمالها الرائع.

وهنا لم يسع روكسان الا ان تردد كلمات لوبيتا لها حين قالت:

- «انت لن تكوني ابداً بمثل جمالها. اعتقد الدون خوان انك بديلة عنها، غير انه سيكتشف خطأه بالقريب. نعم، انت تشبهينها بأمور عدة، الا انه لن يخلق مثلها في الوجود. كانت ملاكاً نزل من السماء. وكانت طاهرة النفس وذلك كان سر جمالها. اما انت...» وبصقت على قدمي «فانت بشعة بالمقارنة». فقلت اقاطعها محتجة: «لم ينعتني احد بالبشاعة في حياتي». قالت: «هناك الآن من يقول لك ذلك» وتابعت «اتريدين ان تشاهدي رسمها؟» وبغير انتظار لسماع ردي على ذلك تناولت من صدرها محفظة قديمة متسخة، الأمر الذي اغضبني فادرت وجهي عنها. وبحركة سريعة، امسكت لوبيتا بقوة بذراعي وشدتها نحوها وهي تقول: «سألقنك درساً لن تنسيه في حياتك. هذا جزاء من يتطلع باحتقار نحو طفلتي الحبيبة. انظري الآن...».

ودفعت بالصورة المتسخة المبقعة من كثرة الاستعمال الى وجهي وهي تصرخ:

- «لا بأس. اسخري من هذه العجوز الشمطاء. ماذا بامكانك ان تقولي الآن؟».

حدقت في الصورة وقلت:

- «في الحقيقة كانت جميلة».

وصرخت العجوز مرة اخرى:

- «ماذا تقولين؟ كانت جميلة؟ طفلتي الحبيبة ما تزال هنا. انها هنا

وستبقى هنا داخل هذا القلب وقلب حبيبها».

ثم رفعت يدها لتصفعني فتطلعت اليها وانا لا اكاد اصدق وقلت:

- «انت... كيف تجرؤين على صفعي؟ ان زوجي سيعلم بالأمر. اغربي عن وجهي، انت وصورتك الغالية تلك!».

وقفت العجوز تنظر الي والألم ظاهر على قسمات وجهها الملتوية والزبد يكسو فمها وهي تتكلم بغضب. ذلك الغضب الذي حولها الى شيطانة تخلو شفتاها ووجنتاها من اي لون. وما هي الا دقائق حتى هدأت العاصفة وكشفت العجوز عن اسنانها المطبقة لتقول:

- «انت تشبهينها، اليس كذلك؟ ترين الشبه الغريب الذي جعل الدون خوان يتخذك زوجة له؟ الا انك مهما فعلت فلن تستطيعي ان تجعليه يحول حبه لمارتا نحوك. لقد اختارك كبديلة لترضي اهواءه فقط. هذا كل شيء».

بقي توم صامتاً فترة من الزمن بعد انتهاء روكسان من سرد حكايتها مع تلك العجوز، وهو غارق في التأمل والتفكير، وقد تجهم وجهه، ليقول اخيراً:

- لا اعجب من قولك بان حياتك ستكون اكثر سعادة بدون تلك العجوز. والله لا اعلم يا روكسان، كيف تستطيعين تحمل وجودها معك. الا تستطيعين اقناع زوجك بطردها؟

- انه لن يفعل ذلك ابداً. انا في الواقع، لا اراها كثيراً، فهي في المطبخ معظم الوقت.

ثم تذكرت روكسان حادثة دخولها الى غرفة خوان، والصورة الموضوعة في درج الطاولة، وكيف ان لوبيتا كانت تتمنى ان يعود خوان ليجد زوجته في غرفته. فقررت ان تنسى الموضوع من دون ذكره لتوم الذي وقف لتوه وبدا عابساً عندما قال:

- وصفت شكل لوبيتا بشكل غامض جداً...

تفوه بهذه الكلمات وادرك انه ارتكب خطأ فادحاً بالرغم من ان تعابير وجه روكسان لم توح بانها فهمت قصده. الا انها علمت فيما بعد ان المرأة العجوز التي حاولت الدخول الى مكتبة توم عندما كانت روكسان جالسة في الداخل ما كانت سوى لوبيتا.

٥ - الشر بالمرصاد

وقفت روكسان تراقب السيارة الفخمة تتهادى على الطريق متجهة نحو بوابة المزرعة الكبيرة. وما ان دخلت البوابة واقتربت منها ورأت خوان جالساً خلف مقودها حتى اطبقت عينيها في لحظة يأس. كانت في غيابه تشعر بالارتياح اما الآن وقد رجع، فعاد اليها بؤسها القديم. فكرت بمطالبه العقيمة وكيف كان يصر عليها ان ترتدي الثوب الذي يروق له دون اي اعتبار لمشاعرها واحاسيسها. فهي تكره هذه الأمور. تكرهها لأنها بنظر زوجها، هي مارتا، حبه الأول والوحيد. ما هو الحافز الذي دفعه لابتكار تلك الخطة الجهنمية التي اوصلتها الى هنا؟ نظر الى رسمها واذا بالشبه واضح بينها وبين حبيبته التي غابت، ثم خطط مع مارتن موضوع التعرف اليها، ثم ارتكب جرمه الشنيع ليجرها الى الزواج منه. عفريت فقط يقطع كل هذه المسافات ليحصل على ما يريد. وكيف لا يكون اللون خوان ذلك العفريت والجميع يلقبونه بالنسر الأسود؟

وما هي الا لحظات حتى توقفت السيارة امام المدخل. وقبل ان يترجل منها خوان، رمق روكسان بنظرة سريعة متعجرفة، ثم نزل من السيارة. ووقف برهة غير قصيرة قبل ان يصعد وهما يتبادلان التحديق من دون ان يتفوها بكلمة واحدة. في الواقع، من الصعب جداً على المرء ان يجد شخصين مختلفين الى هذا الحد فعينا روكسان البنفسجيتان تؤمنان بالاخلاص، بينما عينا خوان الداكنتان تخبئان في اعماقهما اشياء لا يسبر غورها. وفمها واسع سخي كله دفء وعاطفة بينما فمه رقيق نحيف،

توحي ملامحه بالبرودة والقساوة. انه ثنائي غير متجانس. هذا ما كانت تعتقده روكسان. وطال الصمت، وهي تنظر اليه جامداً مكانه. واذا بشفتيها ترسلان اليه ابتسامة باردة فيقول:

- هل هناك ما يضحك يا روكسان؟

وجاء صوته الحاد ليمسح تلك الابتسامة عن وجه روكسان فتنحت عن طريقه وهو يصعد درجات السلم بخطى قوية حتى وصل وامارات الغطرسة المهيبة بادية على وجهه.

واجابت روكسان بالنفي بعد ان تلون وجهها:

- كنت ابتسم لشيء آخر.

واستدارت لتعود الى المنزل، فامسكها بيدها وقال:

- هل اشتقت الي يا روكسان؟

ألهذا السبب غاب هذه المدة؟ ارادت ان تضحك الا انها توقفت عن ذلك واجابت:

- اشتقت الى عنايتك غير المرغوب فيها. ربما هذا ما تود سماعه.

ومرت لحظة صمت مريعة، تكلم بعدها منذراً بالعواقب الوخيمة التي تنتظرها وقال:

- انت تتجاوزين جميع الحدود. اعلم انك تغيرت. جميل ان تتمتع المرأة بقليل من الجرأة. نعم انا ادرك انك نشأت في جو هو بمنتهى الشدة والحزم.

ولم يعطها الفرصة كي تقاطعه واضاف:

- لكني لن اسمح لك بان تتمادي اكثر بوقاحتك واهاناتك المستمرة لي. تعودي ان تخاطبيني باحترام، واذا لم تفعلي، فاني اقسم بالله انك ستجلبين نفسك محاطة بالمتاعب.

وعاد لوجهها لونه الطبيعي، غير ان شعور الخوف ظل يرافقها. وقالت:

- نعم يا خوان، انني تغيرت كما تقول. اعترف بانك هزمتني وتمكنت من اجباري على الزواج منك بسبب ضعفي. لو تسنى لك ان تعيد الكرة الآن لفشلت من البداية. ولو كانت لدي الشجاعة التي املكها اليوم، لكنت تركتك منذ شهور.

بهدوء ادار يدها واخذ ينظر في راحتها باهتمام، وروكسان تحدق في

وجهه وعينيه الحنونتين وفمه الذي يرسل الكلمات ببطء. صفات تبدو غريبة في شخص هو في منتهى القساوة والغطرسة. وقال:

- لندخل الى المنزل.

شعرت بأن عليها ان تقول شيئاً. سألت:

- هل كانت الرحلة موفقة؟

- وهل يهمك الأمر؟

هزت كتفيها علامة اللامبالاة وقالت:

- ليس بالضرورة.

قال والشرر يتطاير من عينيه:

- توقفي عن ذلك وتذكري من اكون.

ثم رفع ذقنها وهزه هزاً عنيفاً واضاف:

- انت تجبرينني على اللجوء لضربك يا روكسان.

ارتجفت وهزت رأسها متسائلة عن الشجاعة التي اعتقدت انها تمتلكها قبل قليل وصمتت، فهي لم ترد اثارته اكثر كي تتجنب تنفيذ وعيده. وعاد ليقول بهدوء:

- لم تجيبي على سؤالي يا روكسان؟

- وهل هناك حاجة للتعبير بالكلمات؟ لماذا تريد اذلالي لتجبرني على الخضوع؟

عبس خوان قليلاً ثم سحب يده عن ذقنها. لقد تكلمت روكسان بلطف وبصوت مرتجف وتساءلت ان كانت ستشهد اليوم الذي يفقد فيه خوان سيطرته على نفسه وينفذ تهديده. وبنفس يائسة قررت انه لا محالة من الهرب، وعلى توم ان يسهل لها ذلك. وفيما هي في مجال التفكير والتساؤل جاء رد خوان مفاجأة لها اذ قال بصوت ناعم رقيق:

- لا يا روكسان، أنا لا اريد إذلالك.

واتبع ذلك بمفاجأة ثانية اذ اقترب منها ووضع ذراعه حول كتفيها بمنتهى اللطف والحنان ودخلا سوية الى المنزل.

وبينما كانت ترتدي ثيابها وتستعد للعشاء، اخذت تفكر بما حدث فاستغربت كيف انها لم تبعد تلك الذراع عن كتفيها ولم تبد استياءها من لمسه لها، حتى ولا قامت باشارة بسيطة تعبر عما تكن تلك النفس من

اشمئزاز تجاهه. وعندما نزلت من غرفتها، كان خوان واقفاً عند اسفل السلم. وتعجبت، اذ غمرها شعور خفي بانه كان ينتظرها كل هذا الوقت، وتعجبت اكثر اذ رأته يتطلع نحوها باسماً، وهو الذي لم يبتسم سوى مرة واحدة منذ ان تزوجا وقال:

- تبدين رائعة الجمال يا روكسان.

مفاجأة اخرى اخرستها، فوقفت والحيرة تملأها، ليس فقط من تصرفاته بل من مدى تأثير ذلك عليها شخصياً، اذ انتابها شعور بأن كرهها له قد زال، وتوصلت بينها وبين نفسها الى نتيجة وحيدة وهي انه من الافضل ان لا تقوم بأي عمل قد يستفزه. فبادلته الابتسامة وقالت بخجل:

- شكراً.

انشرح وجهه وعمقت ابتسامته، ثم دعاها الى الشرفة لتناول المرطبات.

اختار شرفة تقع بالقرب من غرفة الطعام تطل على القسم الجنوبي من المزرعة، على بحيرة هادئة تعكس نوراً فضياً على ما حولها، وجمال الحديقة بدا رائعاً من خلال الخيوط الحمراء الذهبية المترامية على الاشجار الباسقة والازهار. كان النسيم ينسل ببطء حاملاً معه رائحة الورد وعبير ازهار الليمون والياسمين، فتمتزج كلها لتضفي على الجو رطوبة ونداوة، يزيده حلاوة طائر جميل اللون، يظهر بين الحين والآخر ثم يختفي. وينساب صوت زوجها برقة يعرض عليها كوباً آخر من الشراب، فقبلته شاكرة.

- تبدين سارحة الذهن هادئة.

اومأت برأسها موافقة وقالت:

- انه لمكان رائع هنا. وهادىء جداً.

- تحبين ان تستمتعي به بسكون؟

بسرعة حولت نظرها عن الحديقة وراحت تتأمل مظهره الأنيق وسترته البيضاء وربطة عنقه. غير ان كل ذلك لم يغير شيئاً من ملامحه المرعبة.

وفاجأته بالسؤال:

- اتود ان تتكلم؟

فأجاب بعد ان سكب لنفسه كوباً آخر:

- جميل ان نتسامر.

اطرقت هنيهة قبل ان تجيب:

- وهل هناك شيء بيننا للمحادثة؟

- نستطيع ان نجد شيئاً.

تنهدت بعمق وقالت:

- لا ادري ان كان ذلك صحيحاً.

- لا تريدين ان تتكلمي يا روكسان. اليس كذلك؟

احتارت روكسان في امرها. كانت تختلف عنه كثيراً. الا انه بدا ناعماً رقيقاً، فتذكرت اشارة توم بانها ارادت الزواج منه بطريقة لا شعورية. كانت اشارة غير معقولة. كان عليها ان تقرر ذلك، غير انها لم تفعل. على العكس، بقيت حقيقة هذا الأمر تزيدها ارتباكاً حتى تلك الساعة التي تجلس فيها مبهورة بجمال الطبيعة وسكونها. تذكرت حبها لجويل، غير ان صورته بدت باهتة في مخيلتها.

صدر عن زوجها تنهيدة ذكرتها انه ما زال ينتظر اجابة على سؤاله فتبسمت قائلة:

- طبعاً اريد الكلام. غير انه ليس لدي الكثير لاقوله، او على الأقل، لا يثير الاهتمام.

اجاب على الفور:

- تعوز كلينا الرشاقة في التعبير، اليس كذلك يا روكسان؟

فكرت بانها هي التي تعوزها الرشاقة في التعبير وليس هو. ثم سألته بنبرات جدية كي تضفي على الجو بعض الارتياح:

- اخبرني. ماذا كنت تفعل في مدينة مكسيكو؟

- كانت رحلة عمل، نزلت اثناءها بضيافة اختي المتزوجة مارغريتا.

هنا اصبحت روكسان متشوقة لتعلم المزيد عن اخته. وسألت عن شكلها ومنذ متى تزوجت؟ وكم عمرها. . .

وتبسم خوان فلاحظت روكسان علامات الاهتمام على وجهه. فاعترفت انه بامكانه ان يكون وسيماً غير انها اضافت، وسيماً بتزمت. فهو دائماً يبدو متحفظاً متكبراً وقاسياً بعض الشيء. . . اجاب:

- في الواقع، لا تشبهني ابداً. هي ذات شعر بني خفيف وعينين زرقاوين. انها جميلة جداً او هذا ما اعتقده انا شخصياً وجواباً على السؤال الثاني اقول: مارغريتا متزوجة منذ سنتين ونصف سنة وعندها صبي عمره

سنة واحدة، اذن انت خالة. اما عمرها فخمسة وعشرون عاماً.

- عندها ولد. . .

وعادت بها الذكرى الى جويل واحاديثهما عن الأولاد وكيف اتفقا معاً على ان العدد المفضل لديهما سيكون ولدين، وتذكرت كيف انها تكلمت عن ذلك الموضوع بحياء في مراحل علاقتها الأولى. وسألها خوان بصوت لطيف:

- اتحبين الأولاد؟

اومأت برأسها بعفوية قائلة:

- ربما في يوم من الأيام.

- ربما.

وتجهم وجه خوان. فعضت روكسان على شفتها نادمة على تسرعها بالاجابة. وقالت لنفسها بانها لا تريد ولداً من خوان. فذلك مستحيل.

اطرق هنيهة قبل ان يقول لها بنبرة قاسية:

- لندخل الى المنزل. هيا اكملي شرابك.

- متأسفة. . .

وارادت ان تكمل، وبسرعة قاطعها قائلاً:

- اتعجب من اعتذارك. لست بحاجة لذلك. فالأمر، في اي حال، ليس له اي تأثير.

نهضت وحالة من البؤس تغمرها، حيث انها عادت مع خوان الى نقطة الصفر. انها غلطتها هذه المرة ولكن، تساءلت لماذا حالة البؤس هذه؟ كأنها لم ترد بالواقع تحسين الأمور مع زوجها. . . وعاد اليها الرعب. حاولت ان تتخيل وجه جويل وفشلت. . . ماذا سيحدث لها؟ نظرت الى الرجل الجالس امامها وهو يحمل كأسه بيده وعيناه تحدقان فيها بحنان. مستحيل قالت لنفسها، فعلى الرجل تبدو علامات الحزن والوحدة. وهزت رأسها بطريقة غريبة وهي تردد، كيف يكون رجل مثل خوان تعود العيش لوحده، وحيداً؟ كل ذلك مجرد تخيلات منها. وشعرت بسيل من العاطفة يسيطر عليها، وفي الوقت نفسه، برغبة ملحة لتقوم بعمل شيء يهدىء من تعاستها. وقالت وهي لا تدري كيف تصيغ الكلمات لتعبر عن رغبتها الحقيقية:

- هل علينا ان ندخل الآن؟ الجورائع هنا. . . أليس باستطاعتنا البقاء لمراقبة غروب الشمس؟

جحظت عيناه الداكنتان وظهرت عليه علائم الحيرة الأمر الذي ادهش زوجته. فالحيرة وقوته الجامحة امران لا يجتمعان لدى خوان. ثم قال:

- اهذا ما تريدين يا روكسان؟

لفظ خوان اسمها بطريقة جذابة لم تلاحظها منذ زواجها، وذلك لسبب بسيط هو انها لم تكن لتصغي الى كلامه من قبل بالاهتمام والتركيز ذاتهما، واجابته:

- نعم يا خوان. اما اذا كنت تفضل الدخول. . .

فقاطعها خوان مبتسماً وموافقاً:

- سوف نبقى هنا بعض الوقت.

وبحياء غريب عرض عليها كوباً آخر من الشراب، فقبلته بالرغم من انها لم تكن تشعر بحاجة اليه. وبينما هو يسكب لها الشراب، التقت نظراتهما وابتسما. شعرت روكسان بسعادة لا توصف. كانت تعلم بأن ظاهرة غريبة تحدث. لم تحاول ادراك ما تعني وبدأت بالتحدث الى زوجها الذي عاد ليذكر اخته مرة ثانية فقالت له:

- احب الاجتماع بها وببعض اقاربك الآخرين؟

- ستجتمعين بهم (ثم اضاف والابتسامة تغمر وجهه) سوف ادعو مارغريتا وزوجها لزيارتنا يوماً. فهما بشوق للتعرف اليك.

لا ريب انهما يعتبران مسألة عدم الاجتماع بها غريبة نوعاً.

- لقد تقبلا منذ زمن بعيد فكرة كوني رجلاً غريباً وانطوائياً. قلت بانهما متشوقان لرؤيتك، الا انني لا اسمح ابداً لاحد من الناس بأن يتدخل في حياتي الخاصة. فهما لن يأتيا الى هنا بدون دعوة، او الطلب بالسماح لهما بالمجيء.

هزت روكسان رأسها موافقة وقالت:

- كم تمنيت ان يكون عندي الكثيرمن الأخوة والأخوات ولا اعلم كيف استطعت ان تنقطع عنهم بالطريقة التي فعلت؟

- كان هناك سبب لذلك كما تعلمين.

لم تصدق روكسان ان حديثاً كهذا يجري بينها وبين زوجها. وحبست

انفاسها عندما تطرق الحديث بطريقة غير مباشرة الى موضوع مارتا معتقدة بأن وقع ذلك سيكون هائلاً عليه. غير انه لم يتأثر ابداً فظنت ان خوان قد شفي تماماً من معاناته الطويلة.

كانت الشمس تغطس في البحر، والألوان تتغير بشكل مذهل لم تشهد روكسان مثيله من قبل، فاندفعت تقول:

- انظر يا خوان. . . كأن احدهم يرسم ببراعة خطوطاً ملونة على ريش طائر.

لم يعلق خوان بشيء. واستدارت لتجده يحدق في وجهها وليس في الوهج المتألق في رحاب السماء. احمرت وجنتاها وحولت نظرها عنه، واذ بضحكة خفيفة تضع حداً للسكون ويمد يده ويربت على خدها ملاطفاً، فتتقبل ذلك من غير استياء او ارتعاد. وسألت نفسها ما الذي حدث لها؟ ولم تشأ ان تذهب الى ابعد من هذا. وبعد ان وقف وشرب ما تبقى في الكوب تمتم قائلاً:

- انك لن تشاهدي غروباً كهذا في اي مكان آخر.

- وكيف تكون هناك ألوان بهذا العدد؟

قالت ذلك وهي تحدق بتلك الألوان الجميلة التي تتحول من الزهري الشاحب الى اللون الوردي الى القرمزي والى النحاسي اللامع. انها قوس عظيم من الاضواء والألوان انتشرت في السماء وبدت كأحد جناحي طائر ضخم. وما هي سوى لحظات، حتى غاب الافق وظهر البحر كأنه كتلة من النار تشتعل. وما ان ادارت روكسان رأسها حتى بادرها خوان قائلاً بصوت ناعم:

- الطبيعة رائعة.

ومد يده نحوها ليساعدها على النهوض ووضع ذراعه حول عنقها وشدها نحوه بعطف ظاهر، ثم اردف قائلاً:

- انتهى كل شيء يا روكسان. . . لنذهب الآن لتناول العشاء.

كانت روكسان تجلس امام طاولة الزينة تمشط شعرها وتفكر في احداث ذلك المساء. كانت سعيدة وتمنت لو ان تلك الليلة لم تنته. غير انها تدرك بانها طوال الوقت حذرة يغمرها شعور الجالس على حافة سكين وكأن الاتيان بأية حركة غير ملائمة كاف لاختلال التوازن وجعل زوجها يعود الى

عنجهيته وغضبه. وتساءلت لماذا تصرفت بهذه الطريقة. وعندما لم تهتد الى الجواب، اقرت بان علاقتها بخوان دقيقة وانه هو الآخر يجلس على حافة السكين، وان علاقة من هذا النوع غير مريحة. لكن تلك الليلة برهنت لها ان بذل قليل من الجهد يجعل حياة كليهما اكثر سعادة. هل هذا ما تريده؟ ثم قالت لنفسها بأن المهم الآن هو الفترة ما بين الحاضر وموعد تركها لزوجها، ويجب عليها ان تجعل تلك الفترة تمضي بشكل مريح.

وفيما هي مستغرقة في التفكير لفت انتباهها صوت صرير الباب بين غرفتي النوم، وما ان تطلعت في المرآة حتى شاهدت زوجها واقفاً في الباب. ارتجفت قليلاً وتمنت ان لا يكون قد لاحظ ارتباكها اذ ما زال في نفسها بعض الحنو تجاهه وقالت:

ـ انا تعبة يا خوان.

اقترب منها ووقف الى جانب كرسيها وقال:

ـ الا تريدين مني البقاء؟

كان تأثير رده عليها غريباً. فبدلاً من ان يثور مذكراً اياها بانه زوجها وله حقوق عليها، اكتفى بذلك القول الأمر الذي ازال كثيراً من الاشمئزاز الذي كانت تشعر به تجاهه. ولم تصده بشكل عنيف بل اعادت:

ـ انا تعبة.

ولم تجد شيئاً آخر تضيفه الى ذلك.

تقدم منها خوان ولمس اعلى رأسها قائلاً بلطف:

ـ حسن اذن. تصبحين على خير.

وقفل عائداً الى غرفته.

نظرت الى الباب بدهشة لا تصدق ما سمعته منه. ماذا حدث له؟ اين اختفى جبروته وغطرسته، وشعور اللامبالاة تجاه ما تعاني، وتجاه آلامها المبرحة التي كانت تسببها لها معاملته الخالية من كل شفقة ورحمة؟ ونهضت اخيراً، ثم آوت الى فراشها وهي تشعر براحة بال لأول مرة منذ زواجها عدا تلك الأيام القليلة التي كان خوان فيها خارج المنزل. فلا توتر الليلة ولا خوف ولا صرير ابواب ولا ارتعاد ولا اشمئزاز. تنهدت روكسان دليل الرضى واستسلمت لنوم عميق مريح.

في صباح اليوم التالي، نزلت الى الحديقة وراحت تتجول في ارجائها.

وبعيداً، في ناحية مشجرة كان هناك هيكل صغير قررت روكسان ان تزوره مرة ثانية. لقد زارته مرة من قبل شعرت اثناءها انه كان مهملاً وظنت ان المكان لم يطأه احد منذ سنوات عديدة. وصلت الى هناك ووجدت الباب مفتوحاً. وما ان سارت قليلاً باتجاهه محاولة اغلاقه، حتى شعرت فجأة بتوقف انفاسها وهي لا تصدق عينيها. فأمام المذبح في الداخل كان زوجها راكعاً يصلي. انها لصدمة صاعقة. . . خوان راكع يصلي! امر لا يصدق.

بقيت روكسان فترة من الوقت واقفة مكانها لا تتحرك، لا تصدق ما رأت بأم عينيها وراحت تعيد لنفسها عبارة «خوان يصلي» مرات ومرات لتقنع نفسها بما رأته عيناها. تحرك خوان فاخذت تبتعد بهدوء ثم تركض اذ لا تريده ان يعلم انها رأته في ذلك المكان المتواضع. وتساءلت لماذا كان يصلي؟ وكيف لرجل مثل خوان ان يكون بحاجة الى الصلاة؟

وعندما جلسا الى مائدة الفطور كانت تشعر بالارتباك والحيرة. تبسمت عندما سألها ان كان هناك ما يزعجها، واجابت:

ـ لا شيء يا خوان.

قال بعد برهة صمت:

ـ كنت افكر بأن نذهب لزيارة اختي وزوجها. وجدت هذا افضل الآن فزوج اختي منهمك جداً باشغاله. وبذلك نوفر عليه عبء التعطيل والخسارة.

سألته روكسان عن نوع عمله فاجاب:

ـ هو صاحب مصنع للادوات الكهربائية.

نظرت اليه قائلة:

ـ احب ان ازورها. متى تفكر بالذهاب؟

ـ نذهب في اي وقت.

فأخذت تفكر في توم وفي زياراتها الروتينية له، لكنها كانت نبهته بأنها لن تستطيع الذهاب اليه كالعادة في المستقبل كيلا ينتابه اي شعور بالقلق.

واردف خوان:

ـ ربما نذهب الاسبوع المقبل. هل يوم الاثنين مناسب؟

اومأت برأسها علامة الموافقة وسألت:

ـ كم من الوقت سنمضي هناك؟

- بضعة ايام او اسبوع على الأكثر.

وما ان انتهيا من تناول الفطور، حتى علا خوان الى غرفته التي يعمل فيها، وتناولت روكسان كتاباً حصلت عليه من مكتبة توم، واسترخت على مقعد في غرفة الجلوس تقرأ. وما هي الا دقائق حتى جاءت لوبيتا تحمل في يدها نافضة للغبار وهي تقول:

- لم اكن اعلم انك موجودة هنا يا سنيورا... انني اقوم ببعض التنظيف.

القت روكسان نظرة على كل ما حولها وقالت:

- تنظيف هذه الغرفة قامت به دولوريس قبل الفطور.

شعت عينا العجوز وقالت بغلاظة:

- حسن اذن. انا لم آت بهدف التنظيف، بل للتحدث اليك.

انقبضت اعصاب روكسان، غير انها حافظت على هدوئها، وقالت:

- عن ماذا؟

مشت نحوها لوبيتا بانحراف. فادارت روكسان رأسها لتبعد عنها رائحة فمها الكريهة، ثم حنت العجوز جسمها النحيل وقالت:

- انت وصديقك... أعني حبيبك.

التفتت نحوها عابسة لا تفهم ماذا تعني وقالت:

- عم تتكلمين؟ انت مجنونة يا لوبيتا... ارجوك ان ترحلي من هنا.

وصرخت لوبيتا:

- أأنا مجنونة؟ انت تدعينني مجنونة؟ انت تهينني وسوف تندمين على ذلك.

- طلبت منك ان تغادري هذا المكان.

- أغادر عندما اريد وبعدما اكون قد فرغت من كل الذي انوي قوله.

- اسرعي وبعدها اتركيني وشأني.

وسيطر على الغرفة صمت ثقيل قبل ان تبدأ العجوز بالكلام لتقول:

- تبعتك الى دكان صاحبك.

- انت...؟

وشعرت روكسان ان جبلاً من الجليد هوى على رأسها واضافت:

- تبعتني الى المكتبة. كيف تجرأت على ذلك؟

اجابت العجوز بخرخرة متجاهلة عبارة روكسان الأخيرة:

- المكتبة يا سنيورا... انها دكان حبيبك.

وقع الكتاب من يد روكسان من فرط غضبها وارتعادها وصاحت بالعجوز:

- اخرجي من هنا.

قالت ذلك وهي تتخيل كيف سيكون رد فعل خوان عندما يعلم بالأمر واردفت قائلة:

- اخرجي من هنا ودعيني وشأني.

ضحكت العجوز ضحكة شريرة خبيثة وقالت:

- خائفة... خائفة انت من النسر الأسود. يجب عليك ان تخافي لانه سيقتلك. نعم يا سنيورا... لو علمت بكامل قصته لما تزوجت منه. دون خوان قاتل. لقد خنق رجلاً في احد الأيام.

امتقع لون روكسان وقالت غير مصدقة ما تسمع:

- خـ... خنق رجلاً... لا... لا... اصدق ذلك.

غير انها رأته يصلي. هل كان يصلي من اجل المغفرة لجريمة ارتكبها؟

وقالت العجوز:

- انسي هذا الموضوع الآن. جئت كي اكلمك عن علاقتك بتوماس وكيفيلد.

- زوجي يعلم اني كنت في مكتبته.

قاطعتها العجوز قائلة:

- انت خائفة اذن من اعلام زوجك بالأمر.

- قلت لك انه يعلم بذلك.

- ربما زوجك يعلم انك تحدثت معه في دكانه. لكنه لا يعلم بانك زرته في منزله. هل يعلم كم مرة ترددت عليه اثناء غيابه؟ وهل يعلم انك سبحت معه؟

سألت روكسان بدهشة:

- وكيف علمت بكل هذا؟

- الاخبار تسير بسرعة يا سنيورا. لم تكوني حكيمة بالطريقة التي تصرفت بها، وحبيبك هو ايضاً لم يكن حذراً. حياته في خطر الآن.

دون خوان سوف يقتله عندما يعلم بالأمر.

ورغم الخوف الذي اعترى روكسان، وضربات قلبها المتسارعة، استطاعت في الاخير ان تهدىء نفسها وتقول:

- مثل حبه لك.

ارتجفت روكسان وهي تفكر بانها تقف بحضرة انسان لا يعيش في هذا العالم، ولم يسعها الا ان تطلب من لوبيتا مغادرة المكان في الحال، الأمر الذي تجاهلته العجوز واستمرت مندفعة كالنهر:

- انه يمضي معظم وقته يصلي باكراً في الصباح كي لا تريه. انه يصلي لعله يرتاح من آلامه. فأنا اراقب بعينين تريان كل شيء. وانا اجد بان كل شيء لا يسير على ما يرام. ومنذ ليلة امس رأيت الأمور تتغير. لقد كان مختلفاً في معاملته لك عن ذي قبل.

سألتها روكسان:

- وكيف علمت بكل هذا؟

اجابت لوبيتا:

- قلت لك بانني اراقب واصغي ايضاً يا سنيورا. فذلك اعتبره من قبيل الوفاء لحبيبتي مارتا. نعم اصغي. وكان واضحاً انه تغير. . .

قاطعتها روكسان لتسأل:

- كيف تغير يا لوبيتا؟ قلت بأن زوجي ما زال مغرماً بمارتا، ثم قلت انه تغير. اعتقد انك على وشك ان تقولي انه اصبح يهتم بي.

اجابت لوبيتا:

- ابداً. كل ما اردت قوله هو انه يغازلك الآن بهدف ان ترضي عواطفه فقط.

- كنت خلف الباب تستمعين الى احاديثنا اليس كذلك؟

- الواجب يقضي علي بان افعل اي شيء من اجل حبيبتي مارتا. المغازلة تلك، بما فيها مسألة تعريفك باقاربه لا تهمني. يجب عليه ان يبقى وفياً لحبه الأول. علمت اشياء واشياء عنك بما فيها علاقتك بتوماس وكيفيلد.

- انها علاقة بريئة يا لوبيتا.

- دون خوان لن يصدق انها كذلك، سوف يقتص منكما معاً! وبما انني

ومارتا لا تريدك هنا، سوف اساعدك على الهرب. باستطاعتي ان اسهل عليك مغادرة المكسيك.

- واذا لم ارد المغادرة؟

- القرار لا يعود لك بل لحبيبتي مارتا. ان روحها تهيمن في كل مكان هنا. فهي لا تبتسم ولا تضحك. هي تبكي لأنك انت هنا. ستوافقين على مغادرة هذه البلاد والا سأضطر لاعلام دون خوان عن علاقتك بتوم. . . فكري بالأمر يا سنيورا. اعطيك مهلة اسبوعين فقط.

واستدارت لتغادر الغرفة وتغيب.

٦ - قلبه الذي مات . . .

اسبوعان . . . فكرت روكسان بتهديد لوبيتا لفترة طويلة بعدما غادرت المرأة غرفتها . لكن بالرغم من ان فكرة الهرب كانت تلاصق افكارها منذ البداية الا ان اضطرارها الى رسم خطة التنفيذ بدا الآن أقل الحاحاً . فهي لا تستطيع الانكار بأن ثمة تغييراً قد طرأ على موقفها العاطفي من زوجها ، وفي نفس الوقت تواجه حقيقة صعبة أخرى هي انها لن تستطيع ابداً التوصل الى قلبه حتى لو عاشت معه عمرها كله . سيبدو دائماً ان قلبه مات مع مارتا ، وروحه ستظل تعانق ذكراها . لقد احتاج فقط الى عزاء أو انعتاق نفسيين فاختارها زوجة . هذا هو الدور الذي رسمه لها ، فيما هو يتحصن ببرود تجاه اي عذاب قد تعانيه بينها وبين نفسها . حري بها ان تكرهه الآن كما كرهته في البداية لكنها وجدت ان كراهيتها تضعف مع مرور الأيام ، كذلك يبدو انهما يتقاربان اكثر .

لقد اكدت لها لوبيتا ان زوجها يتملقها ليس الا . وقد يكون هذا صحيحاً ، لكن بما انها لا تستطيع التحقق من ذلك فما عليها الا ان تأخذ هذا الاحتمال بعين الاعتبار حتى لو بدا ان خوان قد بدأ يميل اليها قليلاً . كما انها اصبحت واثقة من انه لا يبغي الموت في الحقيقة . فهو صار يضحك بين الحين والحين ، وعندما يتمشى معها في الحديقة مساء . . . وهذه انطلاقة جديدة تماماً من قبله ، يبدو عليه رضا وسلام حقيقيان . . . كذلك أوحت اليها لوبيتا انه يصلي بانتظام صباح كل يوم ، وبالسر عن روكسان ، سائلاً الله ان يميته ليرتاح من عذاب فجيعته بمارتا . لكنها تشك في صحة هذا الايحاء لأن قوة شخصية خوان تتعارض مع مسلكية ضعيفة

كهذه . اذن لماذا يصلي باستمرار ؟ هل يطلب المغفرة على جريمة قتل ؟ وسرعان ما نفت روكسان هذه الفكرة جملة وتفصيلاً . لا شك ان عقل لوبيتا قد اصيب بمس من جراء حبها المفرط للفتاة الراحلة ، كما شكّت روكسان في صحة اقدام خوان على خنق رجل وعزت الأمر الى ان لوبيتا اخترعت هذا التخيل لتزرع الرعب في قلبها لأنها زوجته .

وفكرت روكسان في نفسها ، لو يتعلم ان يحبني قليلاً لاستطعنا ربما ان ننجح في زواجنا . . . لكنها ما لبثت ان تذكرت انها لن تستطيع ابداً التوصل الى عواطفه بسبب حبه الراسخ للفتاة الميتة . . . وعادت تقول لنفسها . . . لا ، لن نقدر ابداً ان نحب بعضنا كزوجين ولذا من الأفضل العزم على تركه .

هذه التساؤلات واخرى من نوعها كانت تشغل بالها في اليوم المقرر لذهابها معه الى زيارة اخته وزوجها والمكوث عندهما لبضعة ايام . كانت في غرفتها حين اعادها صوت خوان الى الواقع لحظة دخل عليها وسألها ان كانت مستعدة لبدء الرحلة . اومأت بالايجاب وأشارت الى الحقيبة المفتوحة على السرير :

- سأخفف شيئاً منها اذ لا استطيع اقفالها .

تقدم من السرير وسألها :

- ما الذي تودين اخراجه منها ؟
- ذينك الفستانين . . . على ما اظن .

احدهما كان الثوب الأخضر الذي اعجبه ، لكنها حالما رأت نظرته المستاءة بدا مهماً جداً ان تأخذ ذلك الفستان بصورة خاصة . فقالت على الفور:

- سأفرغ الحقيبة ثانية لأفرز ما يمكنني الاستغناء عنه .

الا انه هز رأسه قائلاً :

- هناك حقائب اخرى بالطبع ويمكنك استعمال احداها .
- لم ابحث في الخزائن . هاتان الحقيبتان أتيت بهما معي .

وأشارت الى الثانية المقفلة والجاهزة لتنقل الى السيارة .

فاقترح بقوله :

- اعطني الفستانين لاضعهما في احدى حقائبي وفيها بعض المتسع .

ناولته اياهما وهي تستغرب شعورها بالسعادة والانشراح بالرغم من

التهديد المتأرجح فوق رأسها . في اي حال ، على لوبيتا أن تفكر مرتين قبل ان تثبت اتهاماتها لها ، لأن خوان سيصر على ان يعرف منها بالضبط كيف حصلت على معلوماتها . لا شك ان قوة شخصية روكسان في ازدياد مطرد ، والدليل استطاعتها التغلب على مخاوفها في الوقت الحاضر وانصرافها الذهني الى مستجدات الزيارة الوشيكة . كانت متلهفة الى لقاء مرغريتا وزوجها ، وتتطلع بالفعل الى الرحلة الطويلة وهي تجلس الى جوار زوجها في السيارة . كذلك تتوقع جلسات بهيجة في المطاعم أثناء تناولها الوجبات على الطريق ، ونزهات قصيرة على الأقدام عندما يتركان السيارة لينشطا عضلات سيقانها .

بيت مرغريتا يقع في سان آنهل وهي منطقة يستغرق الوصول اليها من مدينة مكسيكو حوالي ثلاثين دقيقة بالسيارة . ولدى اقترابها من البيت كان الوقت متأخراً جداً .

وسألها خوان :

ـ اتشعرين بتعب يا روكسان ؟

خيل اليها انها استشفت قلقاً بسيطاً في صوته وهزت رأسها نفياً ، فأضاف :

ـ لقد وصلنا .

ثم انعطف على ممر مرصوف بالحصى يعلوه من الجانبين حائطان عاليان . اوقف السيارة ، وفي اللحظة ذاتها انفتحت البوابة الحديدية على يد رجل مكسيكي شاحب الوجه ينتعل صندلاً ، كان قد ارسل لينتظر وصولها . عاد خوان يقود السيارة عبر البوابة التي أقفلها الرجل خلفها . وفي ضوء القمر رأت روكسان بيتاً ابيض ، شامخاً ومهيباً ، يقوم وسط ساحة معبّدة . أوقف خوان السيارة ، وحالما ترجلا منها ظهرت اخته وزوجها على الباب الأمامي وكان ايضاً من الحديد الثقيل المزخرف وقد انفتح بلا صوت بسبب مفاصله المزيتة .

تبادل خوان ومرغريتا عبارة سريعة بالاسبانية فاستنتجت روكسان انها تحية خاصة بين الأخ واخته ثم قام بالتعريفات المطلوبة . هتفت مرغريتا باخلاص وسرور واضحين :

ـ يبهجنا ان نلتقيك يا روكسان !

انتظرت روكسان بأنفاس محبوسة لبينها تمعنت الفتاة في وجهها لكنها لم تكشف بكلمة أو بتعبير عما اذا رأت فيه اي شبه لوجه مارتا . ثم دخل جميعهم الردهة فلاحظت روكسان بسرعة اثاثاً وبلاطاً لامعين ولوحات في اطر مذهبة وثريات من البلور المصقول .

وقال لها ادواردو بصوت هادىء مهذب :

ـ لقاؤك يسحرنا يا روكسان .

بدا طويل القامة مستقيم الظهر ووسيماً وهو يقف الى جانب زوجته الجذابة ويصافح روكسان بقبضة متماسكة ودودة . فشعرت بالدفء يسري فيها وبدهشة للّذة من لياقة اهل زوجها .

ـ هيا تفضلا . لا بد انكما متعبان وجائعان ومتقلصا العضلات بعد هذه الرحلة الطويلة .

فاحتج خوان بنبرة غضب بسيطة :

ـ لا نشعر بأي من هذه المزعجات ، فقد استرحنا قليلاً وأكلنا ، وغادرنا السيارة عدة مرات حيث تخلصنا من أي تقلص عضلي محتمل الحصول .

واستدار ينظر الى وجه زوجته قائلاً :

ـ اليس كذلك يا عزيزتي ؟

اومأت مبتسمة ووافقته بهدوء :

ـ نعم يا خوان . لقد فعلنا كل ذلك .

فأعلنت شقيقته :

ـ هذا لا يمنع أن تتناولا شيئاً من الطعام ، وقد ترغب روكسان في تغيير ملابسها قبل العشاء .

ثم تبادلوا حديثاً خفيفاً لبضع لحظات تعرضت روكسان في خلالها لعدة نظرات متفحصة . ثم اخذتها مرغريتا الى غرفتها حيث وجدا حقائبها قد سبقتها الى هناك . وقالت صاحبة البيت :

ـ العشاء سيكون جاهزاً في حوالي ثلث ساعة .

فأجابها شقيقها بلياقة :

ـ سيناسبنا ذلك تماماً . شكراً يا مرغريتا .

ابتسمت لروكسان باشراق وانسحبت مغلقة الباب خلفها .

وجواباً على السؤال الصامت في عيني زوجها قالت روكسان :

- انها ساحرة الشخصية ، وكذلك ادواردو .
فقال وهو يرفع احدى حقائبه ويضعها على كرسي :
- سترين طفلها غداً . الوقت متأخر لكني بحاجة الى ابدال ملابسي .
لاذت زوجته بالصمت . لم يسبق لها ان غيرت ثيابها امامه وشعرت الآن بعجزها عن ذلك . ثم سألته :
- هل لي باستعمال الحمام قبلك ؟
فرمقها بنظرة مدركة وقال :
- سأقصد الحمام الآخر الموجود في الرواق وسأبدل ملابسي فيه ايضاً كي تتصرفي بحرية .
توردت لملاحظته وشكرته بامتنان . لكن عندما خرج وقفت تحدق في الباب المغلق . . . انه كثيراً ما يدهشها هذه الأيام بلطفه المتزايد وبتفهمه وبتواضعه الغريب الذي تشك في ترحيبها به . وهذا التواضع لا يظهر دائماً في وضوح بل على العكس ، لا تستشفه الا في لحظات حرجة معينة لكن مجرد شعوره به يحملها على الاستغراب .
طالت فترة العشاء بسبب احاديثهم المتنوعة ولم يأووا الى أسرّتهم الا في الساعة الثانية صباحاً . وكما فعل قبلاً ، استعمل خوان الحمام الآخر وتعمد البقاء فيه ردحاً كي يوفر لها الخصوصية التي يعلم انها تبتغيها .
تأثرت لتفهمه الواعي حتى العمق وأحست قلبها يتجه نحوه بدفء ، انما لازمت كواليس ذهنها تلك القناعة بانها ليست روكسان في نظره بل مارتا ، ولهذا ، عندما احاطها فقط بذراعه لدى صعوده السرير الى جانبها بذلت جهداً كبيراً في ان تبدو طبيعية ولا تنفر منه .
امضوا اليوم التالي في انشراح ما بين حديث وشرب قهوة وتناول طعام .
انسحرت روكسان بالطفل اتريك وبلغ سرورها منتهاه حين سمحت لها امه بأن تحمله في حضنها وتعطيه زجاجة الحليب . في السادسة مساء وضع الطفل في سريره ، وقال خوان مداعباً انه ما دام استرد زوجته من الطفل فسوف يذهبان للتنزه . لدى عودتهما الى البيت كان ادواردو رجع من مكان عمله في المدينة وقد اغتسل وبدل ثيابه . صعدت روكسان لتغير فستانها وما ان دخلت غرفة النوم حتى طرقت مرغريتا الباب ودخلت استجابة لدعوة روكسان . قالت بوجه مشرق :

- لدينا بضع دقائق للحديث وكنت الحرق للانفراد بك لفترة . أولاً ، أود الاعراب لك عن مبلغ سرورنا لدى سماعنا نبأ زواج خوان .
- شكراً يا مرغريتا .
- اني اتساءل عن مقدار معلوماتك بالضبط .
نطقت مرغريتا السؤال الغامض بعد تردد بسيط . والآن ظهر شيء من القلق على محياها الجميل .
فاستوضحتها روكسان بحذر اذ بدا لها ان زوجها لم يُسرّ الى اخته الا بالقليل :
- ماذا تقصدين ؟
- لقد اعتزل خوان الناس لسنوات طويلة . هل عرفت ذلك ؟
- اجل ، عرفت .
بدا الارتياح على مرغريتا لما تأكدت من انها لم تبح بأية اسرار ، وتابعت تسأل :
- هل تعرفين السبب الذي دفعه الى الانعزال ؟
- اجل يا مرغريتا ، اعرفه .
- اذن هو اطلعك على خطوبته السابقة ؟
- عرفتها من شخص آخر لكن خوان يدرك اني على علم بقصة مارتا .
- الا يضايقك ذلك الماضي ؟
فأجابت روكسان بنبراتها اللطيفة المعتادة :
- انه ماض جد بعيد .
- كنا قطعنا الأمل من امكانية تغلبه على فجيعته يا روكسان . . .
توقفت مرغريتا عن الكلام وغيّمت الدموع عينيها .
- كان الوضع رهيباً . . . حسبنا انه سيظل منقطعاً الى الأبد عن العالم وحتى عن أفراد عائلته .
لم تجد روكسان كلمة تعليق واحدة ، وبعد هنيهة تمالكت مرغريتا نفسها وتابعت :
- انها لأعجوبة ان يتغير الى هذا الحد . اصبح الآن رجلاً طبيعياً ، يتكلم ويضحك و . . . اوه ، استرد سعادته أخيراً وأنا سعيدة أيضاً . كانت كارثة يا روكسان ، وكلنا مدينون لك بفضل انتشال اخي من عزلته .

وهنا انتهى الحديث ونزلت الفتاتان معاً لتناول العشاء . لكن خوان تفرس فيها ملياً لدى دخولها غرفة الطعام واستوضح روكسان الأمر في وقت لاحق فاعترفت بقولها :

- اجل . جاءت مرغريتا لتتحدث معي .
- وهل طرحت عليك اسئلة كثيرة ؟
- بل اسئلة قليلة يا خوان .
- عما استوضحتك ؟

تطلعت اليه مباشرة وروت له بصراحة كل ما دار بينهما . فكرر احدى العبارات باهتمام مرح :

- اذن هما مسروران لسعادتي . . . آه ، حسن . . .

لم يكمل جملته وغيّر الموضوع فجأة بقوله :

- غداً سآخذك الى المدينة . هذا هو البرنامج المقرر حسبما اخبرتني مرغريتا .
- حسبت اختك اني سأستمتع بروئيتها ، لكن ان كنت لا ترغب في ذلك . . .
- بالطبع اود ذلك اذ لا يمكنك ان تعودي الى البيت بدون ان تري مدينة مكسيكو .
- بل اتلهف الى ذلك . هل سنقضي النهار هناك ؟
- الأمر يتوقف على رغبتك . فهمت ايضاً ان ادواردو سيلاقينا لتناول الغداء .

اومأت زوجته وعلقت :

- خسارة انه مضطر الى العمل لكن مرغريتا اوضحت انه مشغول جداً هذه الأيام .
- لا بد ان الأمر كذلك والا لاستطاع أن يتفرغ ليوم غد .

استيقظت روكسان باكراً في الصباح التالي وانسلت من الفراش وزوجها ما يزال نائماً . وقفت لبعض الوقت تحدق الى الوجه الأسمر الملتصق بالوسادة البيضاء . كانت احدى يديه منقبضة الأصابع قرب خده ، وتحركت شفتاه بصمت ولعدة مرات وهي تراقبه . احست بعاطفة مجهولة تتحرك فيها بلا دافع واضح فأشاحت بصرها عنه . كان قوياً حتى وهو

نائم ، وعندما يتحرك فمه بهذه الطريقة يبدو كانه طفل نائم يحلم بأنه ضل طريقه . عبرت الغرفة وأزاحت الستائر ثم فتحت الأبواب الزجاجية وخرجت الى الشرفة المغمورة بالشمس . كانت على السطح عريشة من البوغنفيلية القرمزية تتدلى غصونها المزهرة على حاجز الشرفة . لمستها باسترخاء وأرسلت بصرها يجول على فسحات العشب المقلم ومساكب الزهور . انسحرت بنبات الألياف المتدلية والشبيهة بخضار الكوسا ، وبالطيور النحيلة ذات الذيول القرمزية التي كانت تغط عليها وتطير عنها مكررة هذه اللعبة باستمرار . تنشقت الهواء النقي المنعش وشعرت انه كان بامكانها ان تحب هذه الأرض الاستوائية الزاهية على مر الزمن لو انها وفدت اليها في ظروف افضل .

احست بحركة خفيفة في الغرفة جعلتها تستدير صوبها . كان خوان يراقبها مرتكزاً على مرفقه ، فتوردت خجلاً واغتاظت لأنها لم ترتد شيئاً يغطي قميص نومها القصير والمحرج . وقال بتكاسل :

- نهضت باكراً يا روكسان . منذ متى تقفين على الشرفة ؟

فدخلت الغرفة ووقفت في منتصفها تبحث عن روبها ثم تذكرت انها علقته خلف باب الحمام . وهنا اجابت سؤال زوجها :

- خرجت منذ قليل . انه صباح جميل .

راح خوان يفحص قوامها بالتفصيل ، وقال معلقاً :

- بدوت جذابة جداً وأنت تقفين كلوحة ضمن اطار النافذة .
- شكراً .

أجابت بجمود غير مقصود ورأته يقطب حاجبيه قبل ان يقول :

- لا تحبين المديح ، اليس كذلك يا روكسان ؟

هزت كتفيها بارتباك وقالت :

- انه . . . انه لا يعني شيئاً .
- تقصدين مديحي انا بصورة خاصة ؟
- اجل ، هذا ما عنيت .

فأزاح الأغطية جانباً وأجاب :

- اذن لنتكلم في موضوع آخر كي لا نفسد بهجة هذا النهار المهم بالنسبة اليك والى مرغريتا .

- الا تتطلع اليه ايضاً ؟

اضطرت الى ان تسأله ، اذ بدا فجأة مهماً ان يشاركها الاستمتاع بهذا اليوم . صمت قليلاً ثم قال وهو يرتدي الروب :

- أيزعجك ان لا اكون متحمساً له ؟

- اريدك بطبيعة الحال ان تستمتع باصطحابك لي ولمرغريتا الى المدينة .

- انك تتحاشين اجابة مباشرة وصريحة . اليس كذلك ؟

تناول حقيبة جلدية صغيرة وخرج قاصداً الحمام في الممر وتاركاً اياها تفكر ملياً بتعليقه الغامض .

وبعد نصف ساعة كانت مرغريتا تقول :

- اسعدتما صباحاً ! ارجو أن تكونا امضيتما ليلة مريحة وممتعة جداً .

فرد خوان وعيناه السوداوان تبتسمان لها :

- نعمنا بنوم مريح جداً . شكراً يا مرغريتا . . . وماذا عنك انت ؟

- استرحت تماماً . لقد اضطر ادواردو الى مغادرة البيت باكراً وطلب الي ابلاغكما اعتذاره عن عدم استطاعته تناول الفطور معنا .

كان على المائدة عصير برتقال وأناناس وأيضاً شرائح من البابايا . تناولت روكسان بعضها وقد سبق واعجبت بهذا الثمر الاستوائي اللذيذ . رشت عليها بعضاً من عصير الليمون الصغير الحجم . أكلت مرغريتا فطائر حلوة ، لكنها لم تغفل عن تحضير خبز محمص لروكسان ، والبيض المسلوق جاءت به مرسيدس الفتاة ذات المريول الزاهي التي ساعدت في حمل الحقائب الى الطابق العلوي ليلة وصولهما .

في الساعة العاشرة كانوا في مدينة مكسيكو يتمشون في شارع صغير تحف به بيوت اسبانية الطراز ، مطروشة بلون زهري وذات بوابات خارجية وأبواب داخلية مصنوعة من الحديد . كانت هناك حدائق رائعة امام كل بيت وأناس يكبّون على نكش احواضها وتشذيب اغصانها أو ريّ عشبها بواسطة النباريج . انعطفوا عند الزاوية فاذا بهم في شارع المدينة الرئيسي جادة باسيو دي لاريفورما الجميلة . كان شارعاً عريضاً ضخماً تحف به من الجانبين أشجار الدردار والأوكالبتوس وما بين مسافة واخرى ، يوجد دوار مشجر في وسطه تمثال وحوله اناس يجلسون على مقاعد حجرية مستطيلة أو يمسحون احذيتهم على أيدي صبية حفاة الاقدام ذوي ثياب

رثة ، ولاحظت روكسان انهم يستعملون اصابعهم في وضع الدهان على الحذاء .

تمشوا في الجادة لأكثر من ساعة ثم اقترح خوان قائلاً :

- اظن من المستحسن ان نأتي بالسيارة لنتفرج على المدينة بطريقة اخرى وبسرعة اكبر .

فوافقته مرغريتا فوراً :

- معك حق فأصابع قدمي بدأت تؤلمني من كثرة المسير .

فوبخها اخوها قائلا :

- هراء ! انك تبالغين !

ثم التفت الى روكسان وسألها :

- ماذا عنك انت ؟ هل تؤلمك قدماك ؟

فأطلقت ضحكة قلبية . . . واحدة من ضحكاتها النادرة منذ مجيئها الى المكسيك ، وأجابت :

- كلا ، فاهتمامي الشديد بما أرى لا يجعلني الاحظ قدمي بتاتاً .

- اتشعرين بالاستمتاع ؟

اومأت قائلة :

- كل شيء رائع !

جاؤوا بالسيارة وقادهما خوان الى مركز السوق ، وهي منطقة شاسعة تمتد في كل الاتجاهات . اوقفوا السيارة في مرآب آخر ثم اتجهوا سيراً على الأقدام الى شارع فرنسيسكو ماديرو الأول حيث توجد اروع حوانيت المدينة وأفخمها .

وأوضحت مرغريتا لروكسان :

- هذا الشارع يعادل بوند ستريت عندكم .

ثم رمقت اخاها بنظرة سرية وسألته :

- هل تمانع اذا انفصلنا عنك لفترة يا خوان ؟ اخشى ان بقيت معنا ان نضجرك بوقوفنا الطويل امام الواجهات الرائعة .

وبدا لروكسان انها طرحت السؤال بعفوية مصطنعة ، وسرعان ما وافقها اخوها بقوله :

- كما تشائين يا مرغريتا . سنلتقي بعد ساعة من الآن وحذار من التأخير

اذ وعدنا ادواردو بملاقاته الساعة الواحدة في الفندق .

انفصلوا بعد ذلك ، وبعد ان سارت المرأتان قليلاً توقفتا امام واجهة كبيرة تعرض تشكيلة متنوعة وشاملة من المنتوجات الجلدية . وسألت روكسان رفيقتها وكأنها لا تصدق ما ترى :

ـ هل هذه كلها مصنوعات يدوية ؟

ـ اجل . وهي ليست غالية الثمن تبعاً لبطاقات الأسعار الملصقة بها . اليس كذلك ؟

ـ اسعارها معقولة جداً بالمقارنة مع أسعار الجلد في بريطانيا . اني احب هذا الجلد فعلاً !

قهقهت مرغريتا بعفوية .

ـ انت حلوة المعشر يا روكسان . ان اخي سعيد الحظ حقاً ونحن جميعنا لا نقل عنه حظاً بهذه القربى . اخوتي واخواتي سيأكلهم الحسد عندما اخبرهم اني تعرفت اليك وانك في الواقع افضل زوجة أخ حظينا بها !

ـ لا ، لا تقولي اني . . .

توقفت روكسان فجأة عن الكلام ، ولما رأت الدهشة في عيني مرغريتا تابعت بارتباك :

ـ اقصد . . . اعني اني انسانة عادية لا اختلف عن الاخريات .

ـ هذا تواضع منك يا عزيزتي ، فأخي كان في منتهى العزوف عن النظر الى أية امرأة ، ولو لم تكوني انسانة مميزة لما استطعت جذب اهتمامه بتاتاً .

أكملت روكسان سيرها في صمت وهي تفكر بالأيام التي ستعقب تركها لزوجها . ماذا سيقول اهله عنها وكيف سيكون موقفهم منها ؟ لقد عزوا اليها كل الفضل في تغييره وفي انتشاله من عالم العزلة الموحشة واعادته الى عالم الناس والحياة . لا ريب انهم سيكرهونها اذا تركته الآن . لكن بما ان رغبتها في الانفصال عنه بدأت مؤخراً تضمحل بسرعة فقد طردت الفكرة من ذهنها . في أي حال ، عادت مرغريتا تتكلم وسألتها اذا كانت تعرف السبب الذي حدا خوان الى الذهاب الى انكلترا في تلك الزيارة التي اسفر عنها زواجهما ، وأكملت السؤال بقولها :

ـ كلنا اصبنا بدهشة شديدة لما تناهى الينا خبر تلك الرحلة . وحتى الآن لا استطيع التفكير في السبب القوي الذي جعله يقرر فجأة أن يسافر الى

بريطانيا البعيدة عنا .

فأجابتها روكسان موضحة :

ـ كان قد التقى صديقاً لي . وهذا الصديق دخل اراضي المزرعة بالصدفة اذ كانت البوابة مفتوحة حينها ، وطلب كوب ماء ليروي عطشه . وهنا دعاه خوان الى البقاء لبعض الوقت لبينما يستريح قليلاً . لكن الزيارة القصيرة امتدت الى ثلاثة ايام ، وعندما ودّعا بعضهما وعده خوان بأن يقوم بزيارة الى انكلترا .

فعلقت مرغريتا قائلة :

ـ ما زلت اشعر ان هناك اموراً كثيرة ما زلنا نجهلها . في أي حال ، ان اهم شيء في نظري هو ان اخي الحبيب قد تزوج وحظي بشريكة تسعده . لا يمكنك ان تتصوري كم شاخ في تلك السنوات يا روكسان . . . بالطبع نحن لم نره آنذاك لأنه رفض أن يدعونا مرة واحدة الى بيته ، لكنني رأيته في العام الماضي وكان يبدو مرعباً بهزاله وتغضن وجهه كأنه رجل في الستين . . لكن اتوقع الآن ان يسترد رونقه وشبابه يوماً بعد يوم .

وانهت كلامها بضحكة سعيدة .

فقالت روكسان :

ـ ارجو ذلك . . .

خرجت الكلمات بشكل آلي من فمها لكنها سرعان ما أردفت وقد انتفت ظنونها تماماً :

ـ اجل ، ارجو أن يعود الى سالف عهده يا مرغريتا .

ولما التقتا بخوان ثانية رأت روكسان انه كان يتسوق هو الآخر ، وبدون ان تتروى سألته ماذا اشترى . وهنا عادت مرغريتا ترمقه بنظرة خاصة شبيهة بتلك التي تبادلاها عندما اقترحت ان تنفصلا عنه ، جعلت روكسان تنظر اليهما محتارة .

وأجابها زوجها بصوت مشاغب ومطعم بروح المرح :

ـ اهتمي بشؤونك الخاصة . . . الا يستطيع رجل ان يبتاع شيئاً صغيراً بدون أن يضطر الى كشف هويته لاناث فضوليات ؟

فوجدت نفسها تضحك وتعتذر عن حشريتها ، كما راحت تتساءل عن مرح زوجها الصبياني تقريباً وهو ينطق تلك الكلمات الرادعة والمبطنة

الوضع وكأنهما زوجان متآلفان متحابان لم يحصل بينهما ابدا أي خلاف يستحق الذكر . . . رمقت الرزمة التي ابتاعها عدة مرات وهم في طريقهم الى الفندق حيث سيتناولون طعام الغداء مع ادواردو . لم تكن الرزمة كبيرة الحجم انما اكبر من أن يتسع لها جيبه . تملكها فضول فعلي اذ تأكدت الآن من ان مرغريتا تقصدت انفصالهما عن خوان ليتسنى له شراء ذلك الشيء من دون ان تراه هي ، هذا يعني انه اتفق مسبقاً مع اخته على ان تبعدها مؤقتاً عن طريقه .

حاولت فك اللغز لبضع لحظات اخرى ثم أبعدته عن تفكيرها وهي تؤنب نفسها وتذكرها بوجوب الامتثال لطلب زوجها بأن تهتم فقط بشؤونها الخاصة .

بعد يومين كانا يودعان مرغريتا وادواردو الذي حمل انريك الصغير بين ذراعيه وطلب اليه ان يلوح بيده مودعاً الضيفين الراحلين .

وقالت مرغريتا لروكسان وهي تقبل خدها بمحبة صادقة :

- في رعاية الله يا زوجة اخي الحلوة . سنذهب لنراكما قريباً جداً . أليس كذلك يا ادواردو ؟

- طبعاً يا عزيزتي .

وبدوره ، لثم ادواردو خد روكسان . كان رجلاً هادئاً مفكراً لا يشارك في الأحاديث الا قليلاً ويجلس معظم الوقت يصغي الى ما يقوله الآخرون ، لكن هذه المزية تجعله محبوباً الى حد كبير .

ادار خوان محرك السيارة ، وقال وهو يقودها ببطء استعداداً للانطلاق :

- اترككم في رعاية الله ! سننتظر بشوق ان نراكم قريباً في مزرعة راميريز .

وهتفت مرغريتا مجدداً حين ازدادت سرعة السيارة ومدت روكسان يدها ملوحة من النافذة :

- في رعاية الله يا روكسان ، اعتني جيداً بأخي العزيز !

فأدار خوان رأسه المكلل بشعره الأسود ورمق زوجته بنظرة خاطفة قبل ان يخرج من البوابة الى الطريق وقال باقتضاب :

- انها بجانبك .

ثم ركز اهتمامه على القيادة .

٧- كل شيء ينهار

تسللت لوبيتا بهدوء الى كشك الحديقة الصيفي حيث تجلس روكسان وفي حضنها كتاب مفتوح . كانت عيناها البنفسجيتان تلاحقان حلماً جميلاً وشفتاها المكتنزتان منفرجتين قليلاً ببسمة سعيدة ، وقد توزعت افكارها في كل الاتجاهات . فكرت اولاً في زوجها وفي لطفه المتزايد نحوها مما خفف الكثير من نفورها المشمئز السابق . ثم وجدت نفسها فجأة تفكر في جويل وتتساءل اذا كانت قد احبته حباً حقيقياً ، فهي عجزت منذ فترة طويلة عن استذكار ملامح وجهه الوسيم بوضوح . ثم ان ثقتها الذاتية المتنامية واحساسها الجديد بأنها فرد له حقوقه وليست مجرد دمية يحركها الآخرون على هواهم ، جعلاها الآن تنقم على جويل لاعتقاده بانها خانت حبه عن تعمد وكان يجب ان يتأكد ، من خلال معرفته الوثيقة بطباعها المحافظة الخجولة ، انها لا يمكن ان تذهب مع رجل غريب وتمكث معه طوعاً في أي مكان .

ثم فتحت قناة جديدة لافكارها في اتجاه والدها وديبورا . هما أيضاً كان يجب ان يعرفا تماماً بأنها لا يمكن ان تقدم على عمل كهذا . الآن ادركت مبلغ تفكيرهما الضيق . وعلى الرغم من حبها العميق والمستمر لهما ، الا انها دانتهما ايضاً ، ليس فقط بسبب عدم ثقتهما بها واستعدادهما لتصديق اسوأ الأمور عنها بل أيضاً ، بسبب تربيتهما الصارمة لها والتي حالت دون اكتسابها شخصية قوية مميزة . لكن لسبب غريب لم تقدر ان تحقد عليهما من ناحية ارغامها على الزواج من خوان .

وفي الأخير عادت بكل افكارها الى زوجها ، وهذا ما رسم في عينيها حلماً

جيلاً وعلى شفتيها ابتسامة عذبة. لكن ظهور المرأة العجوز المزعج سرعان ما محا الحلم والبسمة معاً. وسألتها قبل ان تتمكن لوبيتا من الكلام:

- ماذا تريدين؟

- تعلمين سبب مجيئي يا سنيورا. هل اتخذت قرارك؟

نظرت اليها روكسان باستعلاء وسألت بجفاف:

- بأي شأن يا لوبيتا؟ تكلمي بسرعة ثم انصرفي من هنا.

فتوهجت عينا العجوز وبدا الشر في عمقهما الاسود. قالت:

- اظهري بعض الاهتمام يا سنيورا، فأنت على شفا كارثة.

تنهدت روكسان بفروغ صبر وبصوت مسموع، فقلصت العجوز يديها البارزتي العظام واردفت وهي تلصقهما بصدرها:

- هل سأضطر الى اخبار الدون خوان بعلاقتك السرية؟

- لا احسبني افهم ما تقصدين يا لوبيتا. هل لك ان تشرحي مقصدك بكلمات أوضح؟

- ها! ها! انك تتعالين علي، أليس كذلك؟ هل تعلمت من الدون خوان ان...

- هل لك ان تشيري اليه كزوجي؟

- مستحيل! لا بد انك لاحظت حذقي لهذه الصفة التي تريدين اسباغها عليه؟ لن يكون زوجك ابداً! انه زوج مارتا فحسب!

- انت مجنونة يا لوبيتا. سوف اخبر زوجي انك تستحقين الطرد.

ما كان في نية روكسان ان تفعل شيئاً من هذا، لأن شجاعتها لا ترقى الى هذا المستوى ولا يمكن ابداً ان ترتقيه، فمهما بلغ مقدار الدلال الذي شرع زوجها يبديه لها فسوف يوقفها عند حدود اصدار اوامرها اليه.

وجعرت لوبيتا قائلة:

- يا... سوف تندمين على نعتي بالجنون! انا لست مجنونة بل اكثر تعقلاً منك!

ثم اقتربت منها وحنت رأسها حتى كاد وجهها الشرير المغضن يلامس وجه سيدتها واردفت تقول:

- وهل تحسبين ان الدون خوان سيطردني؟ انا الوحيدة من بين سائر الناس التي ما زالت تربطه بحبيبتنا المشتركة مارتا؟

نهضت روكسان من مقعدها وسارت الى باب الكشك حيث فتحت صدرها للهواء النقي وعبّت منه عدة انفاس عميقة ثم انتحت جانباً وقالت لها:

- يمكنك الآن ان تنصرفي.

- ليس قبل ان استعد للانصراف. لقد امهلتك اسبوعين طويلين لتفكري وتعطي قرارك. والآن اريد جوابك، هل سترحلين ام أطلع الدون خوان على المعلومات التي في حوزتي؟

- هل خطر لك ان زوجي سيطلب معرفة الطريقة التي حصلت بها على معلوماتك؟ هل انت مستعدة للاقرار بأنك تلاحقينني وتتجسسين علي؟

توقفت قليلاً ثم تابعت وهي تقلد صوت زوجها الهادىء المنخفض والذي كان في نظرها اكثر ارهاباً من اي نبرة اخرى:

- وهل انت مستعدة يا لوبيتا لاخباره انك استرقت السمع من خلف باب غرفة نومنا؟

تراجعت المرأة خطوة الى الوراء وشحب وجهها حتى حاكى الزعفران. ثم جعرت وشفتاها تتقلصان على لثتها:

- اتظنين ان لديك سلاحاً ضدي؟ ألهذا السبب لست خائفة؟

وفكرت روكسان، لا ريب ان المرأة مجنونة تماماً. وتساءلت لماذا لم يكتشف خوان هذه الحقيقة لغاية الآن... لكنها بالطبع ذكية كسائر الناس المجانين، فعندما تتحدث مع خوان تتقمص امامه شخصية اخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف... اجابتها:

- البريء لا يخاف وبراءتي هي سبب رباطة جأشي. ان زوجي سيصدقني عندما اخبره باني لم ارتكب اي خطأ احاسب عليه...

- أليس من الخطأ ان تذهبي مع رجل آخر وتنزعي معظم ثيابك وكأنك لا ترتدين شيئاً على الاطلاق؟

- من اين جئت بهذه المعلومات؟

- انت لست ذكية كما تظنين يا سنيورا! فلقد تركت تلك القطعة الصغيرة من القماش في الحمام لكي تجف. وانا رأيتها بأم عيني هناك.

ابتلعت روكسان ريقها بصعوبة اذ احست بكتلة خوف صغيرة تتكوم في حلقها على الرغم من مظهرها الخارجي الواثق. ولما استطاعت الكلام

سألت العجوز ببرود:
- هل ستقرين بهذا عندما يستجوبك زوجي؟
- لي الحق ان ادخل حمامك يا سنيورا. . . سأقول له اني كنت اقوم بتنظيفه.
- جواب منطقي بالنسبة الى الحمام، لكنك لا تملكين اجوبة منطقية لأي شيء آخر. ان زوجي سيطردك فوراً اذا جرؤت على اعطائه أية معلومات حصلت عليها بواسطة التجسس.

وهنا بدا الانهزام واضحاً على المرأة العجوز ولاذت بالصمت لفترة طويلة وهي تقلب المشكلة في ذهنها، استنتجت روكسان انها تحاول ايجاد شيء تقوله كي تسحب السجادة من تحت قدمي الفتاة التي تكرهها اشد الكره. لكن لوبيتا اخفقت في مسعاها الفكري، وسر روكسان جداً، وادهشها بدرجة اقل، ان ترى لوبيتا تخرج من الكشك وتجر قدميها مبتعدة عن الحديقة والى جهة البيت الخلفية.

اخيراً حققت انتصاراً عليها! انتشت روكسان وسرى الفرح في عروقها لبضع دقائق لكنها سرعان ما افاقت على الواقع عندما واجهتها حقيقة ان هذا الانتصار لا يعدو كونه ربح جولة وليس انتصاراً نهائياً بأي حال، فلوبيتا ذات العقل الماكر واللامتوازن لا بد ان تتوصل الى طريقة ما للتغلب على هذه العقبة. وعندما تنجح في ايجاد وسيلة، ستنتهي هذه الفترة المؤقتة من الراحة. لقد تكلمت روكسان بثقة واكدت للعجوز ان زوجها سيصدق براءتها، لكنها في اعماقها تشك الى حد كبير في صحة هذا الكلام. . . لا ريب ان خوان بدأ يتغير تدريجياً اذ اصبح اقل ارهاباً، واقل ميلاً الى التملك والى فرض مطالب معينة ضمن علاقتهما الحميمة. كذلك اكتسب رقة معينة جعلت روكسان تعترف ولو باستغراب بانها تأثرت كثيراً برقته هذه وبتفهمه لمشاعرها الحساسة، والى حد لم يخفّ معه فقط اشمئزازها السابق منه، بل بدأت ايضاً ذكرى قسوته الاولى تمحّي من ذهنها، وفي الواقع صارت توجد مبررات لتصرفاته انطلاقاً من تفهمها الجديد لطبيعة زوجها الافضل.

لقد اكدت لنفسها في ما مضى ان زوجها قانون بحد ذاته بسبب مزاجيته الشديدة ونزعاته العنيفة البربرية التي ورثها عن اجداده. لكن بالاضافة الى

هذه الناحية المغرورة والمسيطرة من شخصيته هناك ناحية اخرى مختلفة تماماً. وراحت روكسان تستعرض الحوادث البسيطة التي تؤكد ذلك والتي بدأت تكثر في الآونة الأخيرة. فهو يقدر ان يكون رقيقاً جداً، وكم من المرات اظهر قلقاً عليها، بالاضافة الى تلك الومضات المتباعدة من التواضع التي استطاعت ان تلمحها في تصرفاته. ولولا معرفتها الاكيدة لحبه العميق لمارتا الراحلة، لاستطاعت في تلك اللحظات ان تصدق تقريباً انه كان يناشدها منحه بعض العاطفة.

اجل، لا ريب اطلاقاً في صحة تغيّره، لكن روكسان لا تأمن كلياً لهذا التغير وتحسب حساباً لظهور طبيعته الوحشية مجدداً اذا عرف بذهابها مع توم الى اكابولكو. وسيزداد غضبه اشتعالاً عندما يتذكر بأنها رفضت الذهاب معه هو عندما عرض عليها مرافقته ليقضيا النهار فيها.

كانت ما تزال واقفة عند باب الكشك الصيفي، ونظرت عبر الحديقة الى ما وراء النافورة حين استرعت انتباهها حركة هناك. رأت خوان يسير بمفرده ثم يتوقف ليتأمل الزهور. كم بدا وحيداً. . . رجل طويل عريض المنكبين وواثق، انما انسان وحيد! وفي تخيلاتها رأت الفتاة الصغيرة الرائعة تركض في ارجاء الحديقة، كما وصفتها لوبيتا، ورأت خوان، الشاب السعيد آنذاك، يلاحقها راكضاً ويمسك بها. . . كانا يلهوان كولدين صغيرين، قالت لوبيتا، واستطاعت روكسان، الرومانسية بطبيعتها بالرغم من خجلها الفطري، ان تتصور الصغيرين المرحين اللاهيين يحضنان بعضهما بعضاً. . . عادت افكارها الى الواقع وابتلعت كتلة أسى صغيرة سدّت حلقها. يا لها من قصة حزينة، كررت القول لنفسها، لكنها احست فجأة بعزوف عن التفكير فيها والتوقف عندها. لا تريد ان تتخيل فتاة اخرى بين ذراعي خوان. كانت تحس الماً غريباً من فكرة حبهما العميق لبعضهما البعض، وتشعر بغيرة من لحظاتها الحميمة السالفة ومن ضحكاتها الجذلى التي كانت ترن كالجرس في ارجاء حدائق المزرعة.

بدأت تسير بقلق عائدة الى البيت، فأثار تحركها انتباه خوان الذي ادار رأسه صوبها. وعلى الرغم من بعد المسافة رأته يبتسم لها ابتسامة تلقائية سريعة كما لو انه لم يستطع لجم فرحه برؤيتها.

تقدم صوبها وقال عندما وقف الى جانبها:

- كنت اتساءل الى اين مضيت. اني افكر في اقامة بركة للسباحة... كان يجب ان اقيمها من قبل انما لم اجد ضرورة لذلك...

توقف فجأة وقطب حاجبيه كما لو انه يؤنب نفسه على عدم لباقته، وتابع بسرعة:

- انا وانت سنجد فائدة كبيرة في استعمال بركة كهذه يا روكسان. تعالي وساعديني في اختيار المكان المناسب لها.

تملكتها سعادة غريبة لمجرد انه طلب اليها ذلك، فسألته وكأنها لا تصدق:

- انا؟ اتريدني حقاً ان اساعدك؟

فتأبط ذراعها بلطف واجاب:

- بالطبع اريدك ان تفعلي. سأريك تلك البقعة هناك كي تعطيني رأيك في صلاحيتها.

تسللت يده واحتوت يدها، ولأول مرة منذ زواجها شعرت بذلك الاحساس اللذيذ الذي انتابها ليلة رقص معها في تلك الحفلة البعيدة. ووقتها كان هناك خوف مجهول وغريب يخالط بهجتها لكنها اليوم لم تحسه.

قادها خوان الى فسحة واسعة مزروعة بالعشب اليانع المقلم كبساط اخضر، تحدها من كل الجهات تقريباً اشجار باسقة وشجيرات في منتهى الروعة. فهتفت جذلى:

- هذا المكان فسحة غابية اسطورية يا خوان! قد يبدو غريباً جداً بالفعل اني فكرت فيه من قبل كمكان مثالي لاقامة حوض سباحة.

- فكرت في ذلك؟ اجل، انه لامر غريب فعلاً.

شرد مع افكاره هنيهة فقالت روكسان في نفسها، اذا حصلنا على حوض سباحة فسوف يكون شيئاً لم تره مارتا ابداً، وسيكون جزءاً مني وليس منها.

تأملات غريبة تصدر عن زوجة كانت تعاهد نفسها دائماً على ان تكره زوجها والا تقترب ابداً من حدود الغفران...

وقالت لزوجها بحماسة:

- انه مظلل ومحمي تماماً، وخاص جداً.

- نستطيع ان نزرع على جوانب الحوض اشجاراً تزينه ومن النوع المتمدد الذي تنحني اغصانه حتى مياه الحوض.

- ليس على كل الجوانب لأن معظمها مشجر بما فيه الكفاية.

- معك حق. ماذا تقترحين اذن؟

شعرت باصابعه تضغط بدفء على ظاهر يدها فرفعت بصرها الى وجهه وشفتاها تفتران عن ابتسامة عذبة. حدق اليها بعينين ساكنتين وهو يراقب نظراتها ثم بادلها ابتسامتها وقال:

- لا ادري اذا كانت الاشجار ستبدو جميلة على زوايا الحوض... لا، ليس على كل زاوية وحيث لا تعطي الرونق المطلوب. لا نريد نوعاً من التشجير المصطنع، اليس كذلك؟

هز رأسه وقال:

- كنت افكر بحوض على شكل كلية...

- بالطبع هذا هو الشكل الاصح. ما اضيق خيالي الهندسي! انا كنت افكر بحوض مستطيل. لكن اذا اقمنا واحداً على شكل كلية سيعطينا مجالاً اوسع لزرع الاشجار.

فازداد خوان حماسة ومضى يقترح قائلاً:

- وماذا عن الصخريات ووضع اشياء اخرى لتزيين منعطفات حافة الحوض مثلاً؟

- سيكون ذلك رائعاً! كذلك يمكننا استحداث شلالات صغيرة.

- اجل، مياه تجري على الصخور.

- كم سيبدو كل شيء جميلاً!

ثم اجالت بصرها في ارجاء البقعة المختارة والتي يشتمل تشجيرها الحالي على اشجار الفرانغيباني ذات البراعم العطرة بلون الكريم، وشجر البونسيانة ذي الزهور البرتقالية، والبوغنفيلية البنفسجية القاتمة. ثم شجيرات دفلى زهرية تشكل سياجات منخفضة، يخالطها ياسمين اصفر لكسر النمط الواحد ولتنويع الألوان. وفي احد الجوانب الطويلة، تتهادى ورود وقرنفل وخشخاش احمر فاقع تتوزع الوانها في رشات رائعة، وعلى مطل كل هذه المشاهد الساحرة البهيجة اشجار باسقة تشمل نخيلاً عالياً وارفاً.

وسألت روكسان كاسرة الصمت الذي ساد بعمق بينهما:

- متى نشرع في اقامة الحوض؟

- فوراً . سآتي بمتعهد في الحال .
- وكم سيستغرق بناؤه وتجهيزه ؟
بدا ملتذاً يتفادى صبرها اذ برقت عيناه السوداوان وهو يجيبها :
- لا اعرف متى ينتهي العمل بالضبط يا روكسان . علينا ان نحثهم على سرعة التنفيذ ، اليس كذلك ؟

انتابها خجل مفاجىء بسبب حميمية المشهد ونظرات زوجها الحانية وصوته الهامس تقريباً ، فاكتفت بايماءة سريعة كجواب على سؤاله وأشاحت وجهها عنه وهي عاجزة عن اعتقال تلك الشرارة من النور التي ظهرت مرة واحدة من قبل ثم ما لبثت ان خبت متهربة منها . لكن يد زوجها الحانية احتوت ذقنها واعلى عنقها وارغمتها على رفع رأسها فاضطرت الى النظر الى وجهه . وسألته متلعثمة لمجرد ان تقول شيئاً :
- ما . . . ماذا هناك ؟
- انت في منتهى الجمال . هذا الشعر . . . ذو الخصلات النحاسية اللماعة . . . وهاتان العينان اللتان يتغير لونهما . . .

اجتاحها اشمئزاز مفاجىء سرى في كيانها كله وقفزت بعيداً لتتجنب أي احتكاك به وهتفت :
- اوه ! اني اكرهك !

تجمعت الدموع بسرعة فحجبت بصرها . . . لقد ولّت سعادتها هاربة لدى سماعها كلماته التي نطقها وكأنه يخاطب بها نفسه ، والتي ذكرتها الى حد كبير بتلك التي قالها لها في مناسبة قديمة . . . عندما رقص معها وامتدح لون شعرها النحاسي وعينيها البنفسجيتين وبشرة وجهها فأدركت آنذاك انه كان يلمح الى شبهها الشديد بخطيبته المتوفاة . . .

وكررت بانفعال واختناق :
- اني اكرهك وسوف اكرهك دائماً .

وبدون أن تتوقف لتلاحظ رد فعله المذهول تجاه انفجارها ، استدارت وركضت عبر المرج واختفت عن نظره بالتدريج بعدما تركت المكان الذي كانت منذ دقائق فقط تصفه فرحة بانه قطعة غابية اسطورية !

وحالما أغلقت على نفسها باب غرفة النوم سمحت لدموعها بأن تتساقط بغزارة . . . بعد مشهد حميم كذاك ، وبعد ان خططا معاً لاقامة حوض للسباحة . . . الشيء الوحيد في طول الأملاك وعرضها الذي لن يكون مرتبطاً بمارتا بأي شكل من الأشكال . . . بعد هذا كله ، اتاح لنفسه ان يضيع في الماضي وان يعاود رؤية حبيبته القديمة من خلال روكسان ويتذكر لون شعرها وجمالها وسحر عينيها . . . هي ، زوجته ، لم تعد في نظره تلك الفتاة التي اختطفها من وطنها ومن احبائها ، بل تمثّل مارتا ، الحبيبة الغالية على قلبه .

شعرت روكسان بغثيان شديد . ما هذه العاطفة القوية المريضة التي تصر على احياء روح فتاة معينة في جسم فتاة ثانية ؟ ان خوان رجل شرير . . . قذر في الفعل والتفكير ويلتذ بتعذيب الآخرين . انه يستطيع ، بلا وازع من ضمير ، ان يعيش معها هي متظاهراً بأن مارتا هي الزوجة التي يحضنها بين ذراعيه . . . اما حديثه عن حوض السباحة ، فقد ادركت روكسان الآن انه كان قد خطط له مع مارتا ، فيما احست هي بسعادة وفرحاً غامرين لاعتقادها انها كانت المرأة الوحيدة التي تملأ افكاره وذلك باقناع نفسها بان هذا هو الشيء الوحيد الذي سيكون منفصلاً تماماً عن حبه القديم . . . اجل ، لقد خطط له مع مارتا ، وكان ينوي مراقبة انشائه معها ، ويحلم بأن يسبح فيه معها في النهاية . . . وهتفت روكسان لنفسها ملتاعة : « كلا ، لن يفعل ذلك الا اذا سبح فيه مع شبحها ! اما انا ، فلن استعمل الحوض ابداً . . . ابداً ! » وهكذا ، ومن دون ان تبذل جهداً واعياً ، تملكتها شجاعة وقوة عظيمتان . من اليوم فصاعداً لن تخضع له ولن تشاركه في تظاهره العاطفي المجنون ! لن تسمح له بالاقتراب منها ابداً ، وقريباً جداً ستتركه وترحل .

هذا القرار الأخير ركزت عليه كل افكارها . كان امامها خياران للهرب . اما بواسطة توم أو بواسطة لويتا . لكنها تشمئز من اي تعامل مع لويتا الشريرة ، فقررت للحظة ، انما تذكرت في اللحظة التالية قول المرأة بانها تستطيع مساعدتها على الخروج من البلاد ، في حين لا يقدر توم ان يفعل ذلك ابداً دون ان يكون جواز سفرها في حوزتها . وقررت قبل كل شيء ان تحاول الحصول عليه بطريقة ما . . . لا بد انه موجود في غرفة نوم خوان أو في مكتبه . اذن حالما يخرج من البيت ، ستبحث عن جواز السفر ، لكن عليها ان تكون حذرة تماماً من تجسس لويتا المستمر .

وفجأة تقلصت عضلاتها وأرهفت سمعها ، ثم دخل عليها خوان دون ان يطرق على الباب . ووقف يحدق فيها بخليط من الحيرة والغضب . استفسر بحزم :

ـ روكسان ، ما الذي قصدته من انفجارك السخيف ذاك ؟

اجابته بصوت مختنق :

ـ انت تعرف السبب جيداً ولا اريد التحدث معك بشأنه .

فقطب جبينه بحيرة شديدة وكرر قائلاً :

ـ اعرف السبب ؟ اني واثق من جهلي له يا روكسان .

تغير لون عينيها البنفسجي وهي تشمله بنظرات احتقار وقالت :

ـ اهناك اي حاجة الى التمثيل ؟

ثم عجزت عن مواجهة نظراته الثاقبة فأشاحت عنه وتابعت .

ـ انت تدرك لماذا تزوجتني ، وذلك تفسير كافٍ لانفجاري كما تسميه .

وأكملت بكبرياء هادئة :

ـ والآن ، هل لك ان تتركني وشأني ؟

اجابها بالصمت فتصورت غضباً يرتسم في عينيه لكنها لم تتحرك في اتجاهه لتتأكد من غضبه .

ولما اجابها كان صوته يعكس حيرته المستمرة :

ـ السبب الذي تزوجتك من اجله ليس له اية علاقة بذلك الاستعراض الذي جرى في الحديقة . لا اظن اني افهم قصدك يا روكسان .

فهتفت غاضبة :

ـ كف عن التمثيل ! انك تضيع الوقت ليس الا ! قلت لك اني لا اريد التحدث في الموضوع .

قال يأمرها بلطف :

ـ انظري الي .

ـ لن افعل ! لقد طلبت اليك ان تتركني !

كانت على وشك البكاء . انما بالرغم من تعاستها احست في قناعة داخلية بانها استطاعت التمسك بقوتها مع انها استغربت ذلك كثيراً . فلو انها واجهت الموقف نفسه قبل بضعة اسابيع لما تهورت الى هذا الحد وجرؤت على مخاطبته بهذه اللهجة الصارمة .

وأرعد فيها ثانية :

ـ انظري الي !

لكنه لم يمهلها حتى تطيعه بل قبض على ذراعيها بخشونة ولوى جسمها مرغماً اياها على مواجهته قائلاً :

ـ اصر على ان اعرف حقيقة ما يجري !

فصوّبت اليه نظرة احتقار طويلة ، انزلقت من وجهه الى قدميه وصعّدتها ثانية الى وجهه . ألهب تصرفها غضبه فهزها بعنف من ذراعيها ، وهتفت هي :

ـ اتركني وشأني ! واخرج من هنا .

ـ اتطردينني ؟

وهنا ثارت ثائرته وظل يهزها حتى تهاوى وجهها باكياً ، وصرخ محتداً :

ـ اياك وتخاطبني بهذه اللهجة الآمرة ! لن اترك هذه الغرفة الا عندما تعطينني تفسيراً اقتنع به !

كان وجهه مربداً من شدة الغضب فتذكرت انه يمثل اسلافاً همجيين ويلقب بالنسر الأسود . كانت تقاسيم وجهه الشبيهة بوجه نسر تبرزها التغضنات العميقة في جبينه من جراء ثورته ، وشفتاه النحيلتان المتقلصتان حول لثته وأسنانه والشريان النابض بجنون في خده .

بدأت شجاعتها تنحسر انما للحظة واحدة فقط اذ صممت على الاستمرار في الصمود ، لأنها اذا اتاحت له الآن ان يجرفها بقوته فكيف ستقوى على رفضه عندما يأتي في المساء الى غرفتها ؟ وهي مصممة على رفضه ولن تتزحزح عن قسمها بأن تضع حداً نهائياً لتظاهراته العاطفية المريضة . . . لكن كيف تفسر له الآن سبب تصرفها السابق في الحديقة ؟ وبما انها لم تشأ ان تأتي على ذكر خطيبته المتوفاة ، قالت اخيراً بعدما استطاعت تحرير ذراعيها من قبضته :

ـ ان كان لا بد لك ان تعرف السبب ، فاعلم اني عدت اشعر بكل الاشمئزاز القديم الذي كنت اكنه لك ، فكلامك حول جمال شعري وعيني ذكرني بكلام مماثل سمعته منك في اول لقاء لنا ، وذكرني بكل ما فعلته معي .

وبرغم شحوبها اكملت بصوت هادىء أدهشها :

- اني اكرهك يا خوان . والآن ، ارجوك ان تنصرف .

تقلص وجهه الأسمر الداكن ، وعاد يقبض على ذراعيها بقسوة ، فصرخت هذه المرة من الألم وصاح فيها متهماً :

- انت تكذبين ! اريد معرفة الحقيقة !

شدد قبضته على ذراعيها بقسوة اكبر ففاضت عيناها بالدموع وقالت بصوت مرتجف :

- انها الحقيقة ! اقسم اني ما اخبرتك سوى الحقيقة .

وبالطبع لم تكذب عليه لكنها اخفت عنه جزءاً من الحقيقة . تفحص وجهها بحدقتين ضيقتين وقابلت نظراته المخيفة بطرف جامد ، فقال بقدر اكبر من الهدوء :

- ارى انك ذكرت الحقيقة .

لكنه دفعها بعيداً عنه بعنف شديد جعلها تتعثر الى الوراء وكادت تسقط ارضاً لو لم يسارع الى الامساك بها مجدداً . ثم جذبها اليه معاقباً اياها على كلامها ، وبعد لحظة قال بصوت منخفض خرج كثيفاً من حلقه :

- تقولين انك تفرقين مني ؟ اذن يبدو اننا عدنا الى حيث بدأنا .

لم توهم نفسها بانه ربما كان يقصد من كلامه شيئاً آخر ايجابياً ، بل كانت لديها قناعة تامة بأن كل الرقة التي لمستها منه مؤخراً وكل الاهتمامات الصغيرة ، والنظرات القلقة على راحتها ، لم تعد من نصيبها من اليوم فصاعداً . . . ولماذا تتحسر أو تهتم ما دامت قد عزمت على تركه ؟

ولفترة طويلة ، حدقت في الباب المغلق بعد ان عبره الى الرواق بخطوات ثابتة ووقورة على الرغم من الثورة المستعرة في صدره . . . ثم اتجهت عيناها الى الباب الآخر الفاصل بين غرفتيهما ووجدت قدميها تسوقانها صوبه . هل جواز سفرها في مكان ما هناك ؟ من الأكيد ان زوجها لن يصعد الآن الى غرفته وعلى الأقل لفترة معينة . دفعت الباب امامها ودخلت غرفته . . . الدرج الذي فتحته مرة من قبل وجدته الآن فارغاً الا من حلقات لجمع اكمام القمصان ومشابك لربطات العنق . . .

وفكرت ، لا بد ان خوان اخرج منه صور مارتا الفوتوغرافية . . . وأحست باختناق حين تخيلته يحدق في تلك الصور . . . يحدق ويحدق لوقت طويل . فتحت عدداً من الأدراج الأخرى لكنها كانت تحتوي ثياباً

فحسب . . . درج آخر وجدت فيه علبة دفاتر مذكرات فتجاهلتها وأقفلت الدولاب . تنهدت ونظرت الى ما حولها . لم تبق الا الخزانة ولم تتصور ان يكون جواز سفرها محفوظاً فيها ، ومع ذلك فتحت بابها وبحثت في داخلها . ثياب كثيرة معلقة ورفوف عديدة ملأى بسترات صوفية وملابس داخلية مطوية بعناية فوق بعضها بعضاً . مررت يدها تحت هذه الثياب وتنهدت بخيبة . اذن يبدو ان الجواز محفوظ في غرفة مكتبه ، وليس من السهل دخولها لأنها في الطابق الأرضي ولوبيتا ستكون هناك فلا سبيل الى ذلك .

وفيما هي تقفل باب الخزانة ، جذبت بصرها رزمة ملقاة على ارضها في احدى الزوايا . حدقت اليها طويلاً وقد سحرها الورق الجميل الملفوفة به والزهرة التي تزينها والمصنوعة من شرائط زرقاء وبيضاء ووردية . انحنت عليها تلمسها فاذا بالذكرى تغمرها وتعيد الى ذهنها شكل الرزمة التي كان زوجها يحملها يوم ذهبت واياه ومرغريتا الى مدينة مكسيكو . الحجم هو نفسه لكن العلبة ملفوفة الآن كما تلف الهدايا ، بورق انيق منمق وربطة زاهية . اكيد انها نفس الرزمة وأكيد انها هدية لها بمناسبة عيد ميلادها . . . سارعت الى اقفال باب الخزانة وهي ترتعد وعادت فوراً الى غرفتها . من الواضح انه كان ينوي اهداءها اليها . . . وكان سيتخيل نفسه يقدم هدية الى حبيبته القديمة .

تلك الليلة ، لما دخل غرفتها متغطرساً ، واجهته وهي ترتدي كامل ثيابها وأخبرته انه لا يستطيع البقاء . أعقب كلماتها الحادثة صمت مذهول من جانبه ، فيما بدأت عيناه السوداوان تتقدان بنور مخيف كان كفيلاً بالقاء الرعب في قلبها قبل ساعات معدودة ، لكنها تحوّلت الآن الى انسان آخر يتحلى بشجاعة هي وليدة معرفتها بانها على صواب . فعلاقتهما كانت ملوثة فضلاً عن انها كانت مصدر عذاب لها برغم كونها مبعث بهجة لزوجها . . . بهجة لا تطيق التفكير فيها لأنها من النوع الذي لا يروق الا لشخص شرير جداً .

وأخيراً سألها خوان بصوت لطيف :

- ماذا قلت يا روكسان ؟ لا احسبني سمعتك بطريقة صحيحة .

يا لغروره الرهيب بالرغم من انه مجرد غريب داكن اللون ! اجتاحها

غضب وامتعاض ألها كيانها في العمق فأضافا وقوداً الى شجاعتها . قالت بصوت متعال :

ـ ما سمعته كان صحيحاً ، فأنا لست مستعدة لتحمل المزيد من أشياء تقرفني ، كما لا انوي ان اظل مجرد دمية متحركة .

دمية على شاكلة مارتا ، كادت تضيف ، لكنها استطاعت كتم الكلمات في اللحظة الأخيرة ، وتابعت :

ـ لقد ارغمت على الزواج لأني كنت ضعيفة آنذاك ، انما لم اعد اليوم كذلك . ان حياتي ملكي وليست ملكك لتحركها بأصابعك على هواك .

كانت عيناها البنفسجيتان تبدلان لونهما وتكشفان عن العاطفة القوية التي تتملكها . كانت شاحبة الوجه انما رابطة الجأش تماماً . لكن في حال قرر ان يستعمل معها العنف فسوف تعجز عن مقاومته انما ستكون هي المنتصرة معنوياً ، ولن يحصل على ذرة واحدة من الاكتفاء من خلال انتصاره عليها . . . قال :

ـ تبدين وكأنك تستمتعين باستعمال كلمة اشمئزاز .

بدا صوته ذا رنة سطحية عفوية ، لكن طياته حملت شيئاً من وحشيته .

فردت بهدوء :

ـ انها كلمة تناسب مشاعري تجاهك .

بدأ يتقدم صوبها فانكمشت منه غريزياً وهي تحس ضربات قلبها تعنف وتتزايد . مدت يدها امامها لا شعورياً كما لو انها تبغي دره ضربة ستنهال عليها ، فتوقف حيث هو وابتلع ريقه بطريقة غريبة . لكن فمه النحيل التوى بقسوة وركز على وجهها عينين حارقتين . حدقت اليه بتعجب مشدوه اذ شكّت في ان ثمة صراعاً يتفاعل في كيانه . . . وبالتدريج ، وكأنه يؤكد شكها هذا ، اكتست عيناه نظرة حزينة مفكرة سرعان ما محت معظم الخشونة عن صفحة وجهه ، وراح فمه يتحرك بغرابة كما لو يفعل عضلة متمردة فقد سيطرته عليها ، وهبطت يداه المتشنجتان الى جنبيه ، ثم استدار دون ان يتفوه بكلمة اخرى ، ولم تمض لحظة حتى انغلق باب غرفة نومه وسمعت المزلاج يقفل بهدوء من الداخل .

ولفترة طويلة وقفت روكسان جامدة تراقب مقبض الباب وهي عاجزة عن التصديق بانه كان هو الذي انسحب من المعركة . . . لقد توقعت مئة

بالمئة ان ينقض عليها بتلك السطوة التي يتميز بها الغزاة المنتصرون ، انما بدلاً من ذلك انسحب بغاية الهدوء وتركها وشأنها ، ومع ذلك ، كانت متأكدة من عزمه المبدئي على فرض نفسه عليها . . . اذن ما الذي جعله يقدم على هذا التصرف الذي لا يمكن وصفه الا بانه استسلام غير مشروط ؟

كل ذلك اثار فيها حيرة شديدة . لكن الفكرة الرئيسية التي طغت على ذهنها هي انه تركها في سلام . . . وانتابها شعور واثق من انه لن يعود اليها هذه الليلة ولا في اي وقت آخر في المستقبل .

ارتدت قميص نومها ببطء ، لكن عندما آوت الى الفراش اخفقت في استجلاب النوم الى جسمها المرهق اذ كل ما استطاعت ان تراه ، وهي تستلقي في الظلام ، هو جسم زوجها الراكع عندما تلصصت عليه من خلال باب الهيكل . . . جسم خوان الراكع في تواضع امام ربه ، ورأسه المحني في صلاة خاشعة .

٨ ـ بانتظار الفجر

بعد مرور اسبوع ، أطل صباح عيد ميلادها الحادي والعشرين ولم تكن قد فعلت بعد أي شيء في صدد خطة الهرب . ظلت ترى خوان بعين خيالها ولم تقدر أن تقرن تصرفه المؤمن هذا بالصورة السوداء التي رسمتها لشخصيته . هل هناك شيء اشكل عليها فهمه بالنسبة الى الوضع ككل ؟ وهل ستقدر ان تتوصل الى هذا الشيء اذا بقيت في المزرعة ؟ بما ان خوان توقف الآن كلياً عن زيارة غرفة نومها فهي تنعم براحة نسبية وبالتالي ليست هناك حاجة ملحة الى تركه في الوقت الحاضر . . . لم يخطر لها ابداً ، في هذه المرحلة على الأقل ، ان هناك دافعاً خاصاً يحثها على تأجيل الهرب .

لقد زارت توم في خلال الاسبوع الماضي وأخبرها ان فيليس كتبت اليه اخيراً . لم تذكر موعداً للقاء لكن توم كان بادي التفاؤل ، وعندها فقط أدركت روكسان مدى حبه العميق للفتاة .

وسألها توم آنذاك بلهفة :

ـ ما رأيك في رسالتها ؟ اقصد ، هل اخطىء اذا بنيت عليها أملاً للمستقبل ؟

فردت على الفور لتطمئن أفكاره القلقة :

ـ انها بكل تأكيد مدعاة للأمل والتفاؤل . انا واثقة من وجود سبب قوي جعلها تقرر ان تكتب اليك .

ثم استفسر توم عن سير علاقتها بخوان . فاعتمدت جواباً متحفظاً بطبيعة الحال مما جعل توم يتأملها بدقة محاولاً استشفاف الحقيقة ، فقال بصيغة سؤال انما كان في الواقع تذكيراً بحقيقة معينة :

ـ لست متأكدة الآن من صوابية تركه ؟

ظلت صامتة بعض الوقت ثم اجابته بصدق :

ـ لقد غيرت رأيي يا توم . لا ارغب الآن مطلقاً في الانفصال عنه .

وبهذا الاقرار سطعت الحقيقة المذهلة امام عينيها . . . انها واقعة في حب زوجها الغامض الأسمر ، الرجل الذي يطلقون عليه اسم النسر الأسود .

ولما استلقت ليلاً على فراشها ، سألت نفسها : كيف ومتى وقعت في حبه ، وهي تدرك بشكل ما انها تخطت سنوات مراهقتها . كانت هناك مناسبة أو اثنتان ، تسرب فيهما الى وعيها بصيص من النور ، انطلق من مكان ما في ثنايا ذهنها العميقة لكنها اخفقت وقتئذ في ادراك معناه . وحتى لو انها وعت ذلك البصيص من الحقيقة لكانت نبذته على الفور كشيء سخيف للغاية . . . أفلم تعاهد نفسها على ان تكره زوجها طيلة حياتها ؟ اما الآن فكل ما فعله معها يبدو باهتاً وبلا اهمية تذكر ، بالرغم من انها لم تنس السبب الأساسي واللاعاطفي لزواجها منه . لكنها في ضوء هذه الحالة الجديدة الصادقة مع ذاتها ، تتعلق بالأمل بطريقة يائسة وذلك انطلاقاً من تصميمها على ايجاد وسيلة تجعل زوجها ينسى حبيبته الأولى . لكن ، أليس اكيداً انها تحضن املاً عسير التحقيق ؟ فخوان احب مارتا طوال احد عشر عاماً تقريباً ، وقد تزوجها هي ، شبيهتها ، ليعيش مع مارتا في الخيال من جديد . اذن اي امل لديها في امتلاك قلبه بلا منازع ولا شريك ؟

«سأحاول بكل ما لدي من قوة وتصميم» .

قالت لنفسها وهي تعي شجاعتها وثقتها الذاتية اللتين اكتسبتهما فقط نتيجة لاحتكاكها مع خوان في الأسابيع الأخيرة ، وكان له الفضل الأكبر في احداث التقارب بينهما . . . وتابعت تحدث نفسها قائلة :

«وعندما يعطيني هديتي اليوم سأتقبلها منه بلياقة وامتنان ، ولن اقذفها في وجهه كما كنت انوي أن افعل . . . اجل . سأحاول ان لا اتذكر بانه يقدمها في الحقيقة الى مارتا . . . لكني سأقبل الهدية كما لو انها لي خصيصاً وسأقنع نفسي بانه اختارها لي انا ولم يخترها لها» .

وهنا أحست ان اثقالاً عديدة تنزاح عن قلبها فنهضت منشرحة

واستحمت وارتدت ثيابها .

في غضون الاسبوع الفائت بالكاد تكلم احدهما مع الآخر ، وبدأت الهوّة تتسع بينهما . لقد التزم غرفته الخاصة طوال الوقت ، ومع انها ما تزال تفضل هذا الوضع الانفصالي بالرغم من حبها الذي اكتشفته مؤخراً ، فقد تراءى لها لو انه جاء اليها ، لاستطاعت ، بسهولة اكبر ، ان تكثف محاولاتها لاستجلاب حبه ، ولصعب على زوجها مع الوقت ان يقاوم هذه المحاولات القوية من جانبها . أفليس اكيداً انها اذا اغدقت عليه حبها الصادق سوف يستجيب لعواطفها قليلاً ، ويوماً بعد يوم ؟

لما نزلت الى الطابق الأرضي ودخلت قاعة الطعام جاءتها لويس بعدة بطاقات معايدة على صينية فضية . لاحظت ان احداها كانت من ابيها وأخرى من ديبورا . البطاقة الثالثة من صديقتها كلير التي تذكرت عيد ميلادها ، ورابعة من مرغريتا ايضاً ، اما البطاقة الخامسة وغير المتوقعة فقد ارسلها جويل وكانت تحتوي بيتاً عادياً من الشعر والكلمات التالية ، « تمنياتي لك بالسعادة في عيد ميلادك ، جويل » .

قرأت الفحوى دون ان تشعر بأي حزن أو توق الى الشاب الذي احبته سابقاً ، ولماذا تشعر بشيء وهي الآن تحب خوان اكثر من حبها لأي شخص آخر في العالم ؟ ولكن أين بطاقته ؟ لماذا لم يرسل اليها واحدة ؟ ووجدت نفسها تغص بريقها ألماً وخيبة لكنها سرعان ما انتبهت الى انه سيرفق البطاقة على الأرجح بالهدية ، وهكذا راحت تنتظر نزوله الى قاعة الطعام وهي تعيد في ذهنها ما ستقوله له ، وكيف ستنظر اليه كي تجعله يتخلى عن القسوة التي حلت به منذ تلك الليلة التي انتصرت عليه فيها برفضها له . . . قد يتمشيان بعد الافطار في الحديقة فتنتهز الفرصة وتقوده الى تلك البقعة الرائعة حيث قررا اقامة حوض السباحة ، الحوض الذي ما زال مشروعه مجمد التنفيذ بالرغم من قرار خوان بأن يتصل بالمتعهد على جناح السرعة . . . ومتى وصلا البقعة ، يجب ان تحاول جهدها ان تنسى ما حصل سابقاً وتواصل ما انقطع من تخطيطها السعيد ، فتبدأ مجدداً من اللحظة التي سبقت تلفظه بتلك الكلمات المشؤومة وحيث غمرت كيانها تلك الموجة العاتية من الاشمئزاز .

استدارت بسرعة حين دخل قاعة الطعام وأحست قلبها يقفز من

مكانه . . . اين الهدية ؟ لماذا لم يأت بها معه ؟ اكيد انه لم ينسها ؟ شعرت فجأة انها لن تحتمل الصدمة اذا كان قد نسي ان اليوم هو عيد ميلادها وبعد كل الآمال الجميلة التي عقدت العزم على تحقيقها .

وقال لها بنبراته الباردة المعتادة واللامبالية :

ـ صباح الخير يا روكسان . ارجو منك المعذرة ان كنت تأخرت . هل تركتك تنتظرين طويلاً ؟

فقد قلبها كل الفرح الذي غمره منذ برهة قصيرة ، وأجابته بصوت ذي رنة غريبة لا تمت اليها بأي صلة :

ـ صباح الخير يا خوان . لا ، انت لم . . . لم تدعني انتظر طويلاً .

لماذا تقترب دموعها من عينيها الى هذا الحد ؟ ليس من المعقول بتاتاً ان تشعر بهذا القدر من الخيبة المرة ، ما دامت لا تستطيع أن تزعم ، حتى في الخيال ، انها قد فعلت مطلق شيء تستحق لقاءه ان يتذكر عيد ميلادها . الا انه يبدو غريباً جداً ان لا يتذكر فقط ان يبتاع لها هدية ، بل ان يكلف نفسه ايضاً عناء لف الهدية بتلك الطريقة الجذابة جداً . . . وهذا التصرف من جانبه ادهشها الى اقصى الحدود لأن مهمة رقيقة كهذه لم تكن لتتوقع ابداً ان يقوم بها زوجها الصارم القاسي .

وكعادته دائماً قبيل تناولهما الطعام ازاح خوان كرسيها الى خلف فجلست عليه وهي تشاور فكرها ، هل تغامر بالتلميح ان هذا اليوم خاص بالنسبة اليها ام تلوذ بالصمت ؟ وقررت ان لا تذكر له شيئاً . انه سيتذكر ذلك من تلقاء نفسه وفي وقت لاحق ، وآنذاك سيصبح بامكانها ان تنفذ خطتها وذلك بأن تقبل الهدية بأسلوب ودود لطيف تعبر له من خلاله عن التغيير الذي طرأ على مشاعرها . لكن الساعات توالت بدون ان يقدم اليها الهدية ، ومع حلول العصر قطعت الأمل واضطرت الى الاعتراف بانه على الرغم من تجشمه مشقة شرائها فقد نسي موعد تقديمها .

لم تر له اثراً وقد اصبح عدم التقائهما عادياً منذ ان اتسعت الهوة بينهما .

احست بالغم يطبق عليها من كل جانب فذهبت لتزور توم وجلست واياه في غرفة الحانوت الخلفية . قالت وهي تغتصب ابتسامة لطيفة :

ـ اشكرك على البطاقة . لقد اثلجت قلبي كثيراً .

ـ توقعت ان تسرك لكونك بعيدة جداً عن الوطن . هل تلقيت

هدايا جميلة ؟
فرطبت شفتيها وقالت بارتباك :
ـ لم . . . لم اتلق اية هدية .
فعبس مجيباً :
ـ ولا حتى واحدة ؟ الم يقدم اليك زوجك شيئاً ؟
كان يحدق اليها مستغرباً فقالت على الفور :
ـ لم يفعل لغاية الآن . اظن انه قد يهديني شيئاً في وقت لاحق .
وهنا فاضت شجونها فلم تشعر الا وهي تخفي وجهها بين يديها وتشرع في البكاء . . . قالت باختناق :
ـ انا . . . آسفة .
ـ يا لك من مسكينة . لقد وقعت اذن في حب النسر الأسود . لماذا لم يقدم لك هدية ؟
فتهاوت دموعها وردت منتحبة وبدون ان تعي انها قد تزج بتوم في موقف بطولي سيؤثر عليه في وقت لاحق :
ـ لقد نسي عيد ميلادي من اساسه ! كنت . . . كنت اعتقد انه سيتذكره حتماً .
فقال لها مواسياً :
ـ لا بد ان يتذكره ، لا تحزني .
ثم سألها محتاراً :
ـ ألم تتلقي اية هدايا من الأهل والأصدقاء في الوطن ؟
ـ كلا ، تسلمت بطاقات فقط .
ـ البريد يعاني من الفوضى يا روكسان . سوف تتسلمينها على الأرجح في وقت لاحق من الاسبوع .
اومأت وأخذت تبحث عن منديلها . ثم قالت :
ـ خطر لي ان بطء البريد هو السبب ، فوالدي وديبورا لا بد ان يكونا ارسلا لي هديتي لكنني . . . وددت ان اتلقى شيئاً في عيد ميلادي بالذات . . . وخاصة من خوان .
انخرطت في سحبة بكاء ثانية ، وهنا ، لم يستطع توم ان يبقى ساكناً يراقبها فتقدم منها وعانقها قائلاً بحنان :

ـ لا تبكي يا روكسان . ان زوجك رجل كثير المشاغل كما تعلمين ، لكنه سيتذكر فجأة انه لم يقم بهذا الواجب المهم تجاهك وسوف يسارع الى التعويض عن تقصيره . الرجال ينسون هذه المناسبات عادة وهذا واحد من تقصيراتهم .
لكن كلماته المعزية اخفقت في مواساتها لأن اهمال خوان بحد ذاته لم يكن الدافع الرئيسي الى تعاستها بل الفرصة الضائعة التي بنت عليها آمالاً حلوة . . . فرصة اقدامها على الخطوة الأولى نحو تحسين علاقتها بزوجها .
وهكذا اطلقت لبكائها العنان فانهمرت دموعها كما لم تنهمر من قبل ، ولجأت الى كتف توم تنشد لديه العزاء .
وعندها رن جرس الحانوت وسمع توم صوت انفتاح بابه فقال :
ـ يجب أن اذهب ، يا عزيزتي . . .
لكن كلماته قوطعت فجأة اذ انفتح الباب الداخلي ايضاً ووقف خوان على عتبته يستعر غضباً فيما بدا فمه النحيل ملتوياً كفم ضبع على وشك العواء .
ـ خوان .
بدأت روكسان تقول بذعر ثم تجمدت وكأنها فقدت حاسة النطق .
تلفتت حولها برعب وقد غاض كل اللون من وجهها حتى حاكى الشمع . . . همست بصوت مرتجف متلعثم :
ـ كيف عرفت اني ، اقصد . . . ما . . . الذي . . . جعلك تأتي الى هنا ؟
صمتت مرتعبة حين اشتعل الشرر في عينيه السوداوين . . . وفي بادرة غريزية وقف توم بينهما بلا تفكير ، وكان تصرفاً خطيراً من جانبه اذ ساعد فقط في اضافة وقود الى ثورة خوان المتأججة ، وحيث امسك بتوم بخشونة وقذفه عبر الغرفة فسقط ارضاً . وصرخت روكسان حين قبض خوان على رسغها بوحشية وكادت أن تفقد توازنها وهو يجرها خلفه في اتجاه الباب المفتوح . وجعر كالمجنون :
ـ اخرجي . . . اصعدي الى السيارة وانتظريني هناك !
وكان توم يقول :
ـ دون خوان ، يمكنني تفسير . . .

لم تسمع روكسان اكثر من هذا لأنها اطاعت زوجها فوراً وهرولت خارجاً الى حيث السيارة :

ارتجفت من رأسها حتى اخمص قدميها ودب الرعب في قلبها فأخذ يخفق ويهتز بجنون بين ضلوعها . تملكها اختناق مخيف كما لو ان انفاسها ستتوقف الى الأبد . . وراحت تقول في نفسها ، من السخف ان تخاف الى هذا الحد ! لن تسمح لهذا الرعب بامتلاكها ! ستقف في وجه خوان ، اجل ستفعل ذلك بالتأكيد ! لكنها عبثاً حاولت التخلص من ذلك الاحساس المريض والعنيد الذي يطوق قلبها وعروقها . . . ان عزمها على الشجاعة والتمرد شيء رائع لكن خوان رجل طويل وقوي الجسم بالرغم من نحوله ، انه قوي كالأسد وهي تحت رحمته تماماً . . . وازداد رعبها حين التمع في ذاكرتها قول لوبيتا بأن خوان اقدم مرة على خنق رجل . . . وقتها ، استبعدت روكسان صحة هذا الحدث بناء على الحنان والرقة اللذين لمستهما في زوجها ، لكنها الآن صارت على ثقة تامة من امكانية اقدام زوجها على القتل . . . وعلى اكثر من القتل ! فهو لن يتوانى على الأرجح عن تعذيب ضحيته قبل الاجهاز عليها . . . ثم سرعان ما نفت هذه الخواطر وعنفت نفسها على افكار خيالية كهذه . قد يكون خوان شريرا لكنها متأكدة من انه ليس شريراً الى هذا الحد .

ومع ذلك لم تقدر ان تتغلب على ارتجافها وعندما خرج اخيراً من الحانوت وجلس خلف المقود بغضب صامت اسود ، ابتعدت عنه غريزياً والصقت جنبها بباب السيارة وكأن هذه المسافة الصغيرة الفاصلة بينهما كفيلة بأن تؤمن لها مقداراً من الحماية .

كانت الرحلة الصامتة واحدة من أقسى المحن التي ذاقتها في حياتها . . وقد مرت بمحن عديدة منذ ان تزوجت هذا المكسيكي الأسمر الذي اقتلعها بقسوة من حضن وطنها . حاولت عدة مرات ان تتكلم ، ان تفهمه بأن المشهد الذي رآه بعين الغضب كان مخالفاً للواقع ، لكن الخوف الخانق انفاسها اعجزها عن الكلام . كذلك احرقت الدموع عينيها ، فلقد اقسمت هذا الصباح ان لا تألو جهداً في كسب قدر بسيط من عواطف زوجها ، وكانت سعيدة والأمل يملأ قلبها حتى جاءت اللحظة التي اكتشفت فيها ان زوجها قد نسي يوم ميلادها . . . ولو انه تذكر لما ذهبت

ابداً لتزور توم اذ كانت تأمل ان تقضي النهار في صحبة زوجها . اما الآن فتساءلت عن مدى جنوحها الى الأوهام نظراً الى الهوة السحيقة التي ما برحت تفصل بينهما منذ تلك الليلة التي رفضته فيها ، ولذا قد تكون تفاءلت اكثر من اللازم حين اعتقدت ان هدية عيد ميلادها ستردم جزئياً تلك الهوة بينهما ، وان تقبلها الودود لها سيكون بمثابة توطئة لنهار سعيد توقعت ان تقضيه معه . . . الآن فقط خطر لها انه لم ينس عيدها في الواقع ، لكنه شعر ان الوقت غير مناسب لتقديم الهدية نظراً الى علاقتهما الشديدة التوتر .

وأخيراً ، لما ترجلا من السيارة امام مدخل المبنى الريفي الجميل ، استرعت انتباه روكسان حركة عند احدى نوافذ الطابق العلوي لم ينتبه لها زوجها . . . لمحت وجه لوبيتا خلف الزجاج ، واستطاعت في تلك اللحظة القصيرة ان ترى بسمة انتصار متشفية تنتشر على قسماته المتغضنة قبل أن تختفي العجوز بسرعة خلف الستائر .

المشهد العاصف والمجنون الذي اعقب دخولهما البيت ، سلب روكسان كل قواها وأوقع فيها رجفة شديدة جعلتها تلجأ الى غرفتها وتستلقي خائرة على فراشها . . . عيد ميلادها ! يا له من عيد !

انكفأت على بطنها دافنة رأسها في وسادتها وراحت تبكي حتى جفت الدموع في محجريها ثم انتابتها شهقات متواصلة ارجفتها لفترة طويلة . احست بانها مريضة جسمانياً . وفجأة عاد اليها تصميمها السابق على ترك خوان ، فهي لا تستطيع ابداً ان تعايش عنفاً كهذا حيث سيلازمها خوف دائم من أن تفعل شيئاً من شأنه أن يثير نقمة خوان وغضبه . . . تنهدت بارتعاد كلي حين تذكرت المشهد العاصف ، الغضب المتأجج الذي انتشر فيه كاللهب الحارق ، اتهاماته وادانته . . . قال انها جعلته اضحوكة بين الناس بتصرفها المخزي وانها لوثت اسمه . . . طلب ان يعرف كل ما قالته لتوم ، ونظراً الى حالتها الذهنية المشوشة تكلمت بلا تحفظ ، وهكذا وصل غضبه قمة الاحتراق عندما علم ان زوجته باحت لتوم بكل شيء تقريباً .

حاولت عدة مرات ان تقاطعه لكنه لم يعطها اية فرصة فظلت تجهل كيف عرف انها ستكون في حانوت توم ، وكيف عرف ايضاً بانها كانت ترى صديقها بانتظام .

لم يكن لديها ادنى شك في ان لوبيتا هي التي اخبرته ، ولكن كيف استطاعت العجوز ان تطلعه على هذه المعلومات بدون ان تضطر الى الاعتراف له بتجسسها ؟ وماذا يهم ذلك ؟ كانت قلقة ، مشتتة ولا ترغب في اقلاق نفسها اكثر بأسئلة غامضة لن تتمكن ابداً من الاجابة عليها .

لكن الذي حدث انها تلقت الاجابات ومن فم العجوز نفسها . ففي ذلك المساء ، وقبيل الساعة السابعة دخلت لوبيتا غرفة نومها بلا استئذان ، حيث استوت روكسان جالسة على سريرها وحدقت الى العجوز بغضب مستعر ، ثم هتفت قبل ان تقول الأخرى شيئاً :

ـ اخرجي من هنا ! اغربي عن وجهي والا ألقيت بك خارجاً !

هل تستطيع أن تقاوم المرأة فعلاً ؟ سألت نفسها ، وأحست ان كراهيتها لها ستزودها بالقوة اللازمة لتنفيذ تهديدها .

لكن لوبيتا غمغمت تؤنبها :

ـ سنيورا ، هذه الطريقة في الكلام لا تليق بالسيدات المهذبات .

ارفقت عبارتها بنظرة قرف خبيثة ، وتابعت بلطف وهي تتقدم قليلاً من السرير :

ـ جئت لأشبع فضولك يا سنيورا ، اذ كنت تتساءلين ولا شك كيف استطعت نقل معلوماتي الى الدون خوان بدون أن اثير ظنونه حول الوسائل التي حصلت بها على تلك المعلومات .

توقفت المرأة ثانية ، واصغت اليها روكسان هذه المرة بدون أي تعليق فتابعت تقول :

ـ لقد تركت بطاقات المعايدة على طاولة زينتك . اخذت البطاقة التي تلقيتها من حبيبك و. . . بمحض الصدفة طبعاً .

وهنا اطلقت ضحكة خشنة تجمّد الدم في العروق ، وأضافت :

ـ اجل ، بمحض الصدفة ، اسقطتها امام الدون خوان مباشرة ، عندما كان في الردهة . . .

فهتفت روكسان وقد ثار غضبها من جديد :

ـ اخذت البطاقة من غرفتي ؟ جرؤت على اخذها من هنا ؟

ـ كان ذلك ضرورياً يا سنيورا للمضي في خطتي . . . تظاهرت بالطبع بالتلكؤ في التقاطها عن الأرض فسارع الدون خوان الى التقاطها بنفسه .

وبطبيعة الحال ، نظر اليها ثم فتحها . يا لمنظر وجهه المخيف في تلك اللحظة . . . كان القتل مرسوماً في تينك العينين السوداوين .

وعندما توقفت العجوز عمداً . حثتها روكسان بقولها :

ـ هيا ، تابعي ، اني مهتمة جداً بالموضوع .

كم بدت هادئة ظاهرياً ! هل هذا صوتها ؟ توقعت ان يخرج مجرحاً بالشهقات ، انما تذكرت انها نامت لبضع ساعات ولا بد ان الراحة اعادت اليها هدوءها قليلاً . ومضت لوبيتا تقول :

ـ تملكه الغضب ، كما ذكرت سابقاً ، وأصر على ان يعرف كيف حصلت على البطاقة ، فقلت انك تركتها في قاعة الاستقبال واني كنت سآخذها اليك . تظاهرت بالخوف والقلق يا سنيورا ، لأبدو تماماً كما الخادمة التي تشارك سيدتها سراً مشيناً . . . انا اتقن التمثيل ، وهكذا رحت احرك قدمي بقلق وامتلأ وجهي ارتباكاً ، وفي الأخير انتزعت البطاقة من يده . . . كان تمثيلاً في منتهى الاتقان .

شردت لهنيهة وراء خاطرة مشرقة ثم تابعت :

ـ اراد الدون خوان ان يعرف السبب وراء حرجي الشديد فحاولت بالطبع أن ازيح ظنونه جانباً . . .

ـ فعلت ذلك بطريقة ضاعفت ظنونه !

فوافقتها العجوز فوراً :

ـ كما تقولين يا سنيورا . . . كما تقولين تماماً . . . تضاعفت ظنونه واضطررت الى اخباره بكل ما اعرف ، لسوء الحظ .

أطلقت ضحكة عنيفة اخرى . وبدا وجهها المغضن اكثر نحولاً وهي تضغط باحدى يديها على قلبها . وسألتها روكسان :

ـ لا بد ان زوجي سألك عن طريقة حصولك على المعلومات ؟

فأومأت العجوز مجيبة :

ـ اخبرته ان امرأة من نساء القرية اكتشفت انك تقيمين علاقة مع رجل آخر وانها نقلت الي هذه الاشاعة .

شهقت روكسان لدى سماعها هذه الكذبة الرهيبة . لا عجب ان يثور غضب خوان ! لا بد انه يظن الآن ان الجميع يتبادلون خبر « علاقتها » برجل آخر . . . اذن هذا ما جعله يتهمها بتلويث اسمه وبجعله اضحوكة

بين الناس !

تمالكت اعصابها واستفسرت من العجوز :

ـ من الطبيعي انه سألك اسم تلك المرأة ؟

ـ زعمت ان اسمها سها عن بالي ، لسوء الحظ .

ـ فهمت ... تابعي يا لوبيتا .

ـ قلت له ان الوضع يسبب لي قلقاً كبيراً ، وصدقني لأنه يعلم اني اهتم دائماً براحته ، وقلت اني تكلمت معك مراراً بالموضوع وتوسلتك ان تتخلي عن هذا الرجل الانكليزي لكنك لم تصغي الي . ثم قلت ان الوضع يحزنني لكوني اعتقدت انه وجد السعادة اخيراً مع الفتاة الجميلة التي جاء بها من انكلترا ... بدا شديد الغضب وأراد ان يعرف اين انت ... تظاهرت مجدداً بالحرج واختلقت عذراً للانصراف من امامه . لكنه ادرك اني اتهرب فقال اني اعرف مكانك وألح علي بالاقرار . وفي الواقع خمنت انك ذهبت لزيارة صديقك ... لتشكريه ربما على بطاقة المعايدة .

عادت العجوز تبتسم بوقاحة واحتقار فكادت روكسان تصفعها على وجهها ، لكنها امسكت نفسها . وتابعت لوبيتا :

ـ وهكذا اضطررت الى مصارحة الدون خوان بشكوكي اذ كان في منتهى الغضب وخشيت ان ...

فقاطعتها سيدتها بصوت مختنق :

ـ يا لك من كذابة مرائية يا لوبيتا ! اتساءل ان كانت لديك اية فكرة عن مدى انحطاطك ؟

ـ لا تواجهي الأمر بهذه البساطة . سنيورا ...

ـ بماذا تنوين تهديدي ؟ لا يمكنك ايذائي اكثر مما فعلت لغاية الآن . وبالنسبة الى اهتمامك المزعوم براحة زوجي فلا اعتقد انك تكنّين له ذرة من المحبة !

وهنا توهجت عينا لوبيتا ببريق مفاجيء وبدت لأول مرة تطفح بالشر كمشعوذة شمطاء ومخبولة كلياً ... وصرخت :

ـ كان يجب ان يظل وفياً لحبيبتي الراحلة ! صحيح انه يستعملك فقط ليعوّض بك عنها كامرأة ، لكنه خان مارتا بزواجه منك ...

شيء ما في نبرة العجوز والطريقة التي ذاب بها صوتها وتحوّل الى نوع من

الصمت المتأمل ، اصابا روكسان بقشعريرة مفاجئة احستها تسري على امتداد عمودها الفقري . من السخف ان تخيفها المرأة الى هذا الحد لكنها لم تستطع التخلص من فكرة مرعبة استحوذت عليها ، وهي ان خوان في خطر من هذه المرأة .

كانت لوبيتا تغمغم كلمات غير مفهومة وكأنها تهذي ، وبرجفة قرف اخذت روكسان تراقب ظهور الزبد على زاويتي فمها ... وقالت العجوز بعد قليل :

ـ لقد اصغيت الى ما دار بينكما بعد ان جاء بك الدون خوان من حانوت حبيبك . قصدتك لأعرض عليك المساعدة لأنك سترغبين الآن في الرحيل ؟

توقفت بعد ان صاغت العبارة الأخيرة في قالب يتراوح بين الافادة والسؤال ، وكان رد فعل روكسان المبدئي ان ترفض عرضها المساعدة ، لكنها راجعت افكارها وتمهلت في اعطاء الجواب . منذ فترة وجيزة ، اقرت نهائياً باستحالة البقاء هنا حيث الحياة مع خوان ستكون شبيهة جداً بالعيش على حافة بئر أو هاوية سوداء . قد تكون هناك بضع لحظات سعيدة لكنها بصورة عامة ستعاني تمزقاً بسبب خوفها منه أو لمعرفتها بأنها لن تتمكن ابداً من الحصول على قلبه الذي وهبه لامرأة اخرى . ومع انها كانت ، حتى ساعات خلت ، مليئة بالأمل والتفاؤل ، الا انها تجد نفسها الآن ملقاة في اعماق اليأس وانقطاع الرجاء من جراء كراهية زوجها لها وعدم ثقته بها . لقد رفض الاصغاء الى وجهة نظرها فيما حصل ، والآن ما عادت راغبة في شرحها له طالما ان ذلك لن يفيدها بشيء ... ولا حتى اذا صدقها ، وهذا غير محتمل على الأرجح .

وأفاقت على صوت لوبيتا تقول :

ـ يمكنني الحصول على جواز سفرك يا سنيورا ، كذلك استطيع أن اؤمن لك بسهولة رحلة العودة . انت لا تنتمين الى هذا المكان وقد توصلت اليوم بنفسك الى هذه القناعة ... ان الدون خوان لا يشعر نحوك بشيء ... عدا مشاعر الكره لأنك لطّخت اسمه الطيب بعلاقتك الشائنة مع رجل آخر . زوجك سيرحب برحيلك ولا شك انك تدركين هذه الحقيقة ؟

اومأت روكسان بتردد وسألتها :

- أتعرفين اين يحتفظ بجواز سفري ؟

توقفت فجأة اذ اجفلتها فكرة اضطرارها الى التعامل مع مخلوقة شريرة كهذه ، ومع ذلك ، ارادت استرجاع جواز سفرها لأنها متى حصلت عليه ستتمكن من الرحيل ولن يقع بصرها مرة اخرى على لوبيتا . اذن، ما همّها ؟ من المحط لكرامتها بالتأكيد ان تسمح للوبيتا بمساعدتها ، لكن من المنطقي والضروري ان تستعين بها بحكم الظروف القاهرة . وأجابتها العجوز :

- اجل ، اعرف اين يوجد جواز سفرك يا سنيورا .

- حسن يا لوبيتا ، اذا جئتني به سأرحل عن مزرعة راميريز .

فجالت عليها بعينيها الظافرتين وقالت وفمها المزيل يتحرك متقلصاً :

- من حسن الحظ انك اتخذت هذا القرار . لأنه يخطر لي احياناً يا سنيورا ان اقتلك ... بمسدس .

- ألديك مسدس ؟

- يمكنني الحصول على واحد يا سنيورا ، لكن اذا غادرت هذا المكان فلن تكون هناك ضرورة لقتلك .

خفت صوتها حين بدأت تتمتم كلمات مفككة ، ومع ان روكسان تمالكت اعصابها المرتجة من جراء التهديد المريع وانحنت الى الأمام لتسمع ما كانت تقوله العجوز ، الا انها فشلت في التقاط كلمة واحدة من شأنها ان تلقي ضوءاً على سائر الكلمات . سألتها بحدة :

- ماذا تقولين ؟ تكلمي بصوت عال كي اسمعك يا لوبيتا .

فاشتعلت عيناها فجأة وحدقت الى روكسان بنظرة جامدة شاردة ، ثم قالت بهدوء وبصوت أقل تهجماً :

- لا لزوم لاهتمامك بما اقول . اهتمي فقط بالعودة الى بلدك . سأرتب لك كل التفاصيل المتعلقة برحيلك .

امتنعت روكسان عن التعليق فهي متى حصلت على الجواز سوف تقوم بترتيباتها الخاصة للعودة .

لزمت غرفتها وأراحها ان خوان لم يرسل في طلبها ... وعندما حدست انه مشغول بتناول طعام العشاء ارتدت روباً فوق قميص النوم وتسللت الى الحديقة لتنعم بالهدوء والانفراد بعض الوقت . كان ضوء القمر يغمر

الأراضي والبيت الذي بدا ، بشكل غريب جداً ، دافئاً ومرحباً من حيث وقفت روكسان تنظر اليه . لم يكن في مظهره ما يخيف ابداً ، وهذا المساء ، وهي مفعمة باحساس رحيلها الوشيك ، بدا وكأنه يدعوها الى دخوله .

كانت الحدائق متعة للعين ، والأراضي شبه البرية المحيطة بها عبارة عن عالم سحري يموج في ألق القمر الفضي . تركت روكسان اراضي المزرعة وبدأت تصعد التل المنخفض والمنحدر من قمم الجبال التي تبدو من بعيد كغيوم صغيرة . لم تشاهد احداً ولم تسمع شيئاً ، وفي هذا الهدوء المحيط بها استطاعت ان تفكر بوضوح اكثر في خططها ... لن تدع اباها وديبورا يعلمان بعودتها الى انكلترا حتى تستقر في شقة خاصة بها ، والا اصرا على ان تعيش معهما في بيتها القديم . هي الآن انسانة مستقلة وتنوي ان تبقى هكذا . اما كيف سيتقبل والدها اقدامها على ترك زوجها فهذه مسألة لا تقلقها البتة . لقد اطاعته حين امرها بالزواج من خوان ، ولن تتيح له المجال في المستقبل ليصدر لها اوامر اخرى .

صعدت التل بتمهل وذهنها منصب على المستقبل . ان كلير صديقتها المفضلة ومن المؤكد انها ستهب الى مساعدتها فور وصولها الى انكلترا . ليس من المفروض ان تواجه صعوبة في ايجاد عمل ، وبعد ذلك ستبحث عن شقة صغيرة . وليثما تجد العمل ثم الشقة ، كانت تأمل في سكن مؤقت مع كلير ، فوالدا صديقتها احبّاها منذ صغرها ودائماً كانا يرحبان بها في بيتها .

اكتنفها الصمت العميق حين توقفت لفترة عن السير وأدارت بصرها حولها . خيّل اليها انها في عالم ريفي آخر لا يغمره الا ضوء القمر ، وليس فيه حتى بصيص نور اصطناعي يظهر من نافذة بيت . وهنا أدركت انها ضلت طريقها الى واد بين التلال ، اما القرية الواقعة في أسفله فلم تقدر أن ترى أضواءها من حيث تقف . كل ما حولها مثير للرهبة انما جميل بطابعه البريء البكر . كانت هناك شقوق صخور ضخمة تبرز في الأفق الأرجواني البعيد ، فتبدو كوحوش هائلة متحجرة مما قبل التاريخ وذات رؤوس مشوهة الأشكال أو مقطوعة كلياً . رأت أيضاً نباتات صبّار ضخمة تبرز حادة في الفضاء بين الأرض والسماء ، وأذرعها الطويلة ذات اللون الأخضر المعتم ، ترتفع في نماذج وأشكال عجيبة ... كان المشهد الغريب

برمته يستلقي كلوحة فضية تحت وهج وجمال القمر المعلق كاسطوانة مستديرة ضخمة فوق الجبال ، فيما تبرز النجوم من خلال القمم التي تشكل شرائح واضحة التقطيع .

استدارت روكسان اخيراً عائدة على الطريق ذاتها ، الا ان افكارها شردت عن حولها واستقرت على زوجها ، وللمرة الثانية تراءت لها فقط صورته الواضحة وهو يصلي راكعاً ، فانتابها احساس غريب جداً ، وتمنت فجأة لو تتوصل الى معرفة المطلب الذي يصلي خوان من اجل تحقيقه . فلعل الجواب يوضح لها طريقها اكثر . . . هذه خاطرة غريبة بحد ذاتها فهي تعرف تماماً الى اين ستذهب . لقد رسمت خطتها وسوف تتركه ولن تراه بعد ذلك ابداً في مستقبل حياتها . تساقطت دموعها على خديها قبل ان تستطيع لجمها . . . ما أصعب ان لا ترى خوان ثانية . . . الزوج الذي تعلمت ان تحبه في أقسى الظروف وأشدها تناقضاً . الرجل الذي كان في وسعها ان تسعده لو اتيح لها فقط ان تتوصل الى قلبه . لكن قلبه مات ، قالت لنفسها ، مات مع مارتا . ومع ذلك ، وفي مناسبات عديدة ، استشفت رقة معينة في تصرفاته لا يمكن ان يظهرها رجل ميت القلب . لقد بدا سعيداً في غضون زيارتها لرغريتا . كان بالتأكيد سعيداً . . . وأيضاً بدأ يضحك ويتخلى عن بعض صرامته التي كانت تضفي على مظهره قسوة جامحة .

لكنه عاد الآن الى شخصية النسر الأسود ، ومن خلال غضبه الأسود الشرير واتهاماته العنيفة تكشّف لروكسان بوضوح مخيف ان الحياة معه ستكون مستحيلة .

عادت بذهنها الى الواقع فأدركت انها كانت تسير على غير هدى وليس على الطريق التي سلكتها سابقاً ، وهكذا وجدت نفسها في منطقة غريبة تماماً . لقد اعتادت التنزه في التلال وأصبحت على إلمام كامل بدروبها المختلفة ، انما يبدو انها ضلت الطريق وها هي تسير بالفعل على ارض كثة العشب والنبات اذ يصلان الى كاحليها . ما أغباها وأسخفها ! وقفت ساكنة تحدق الى المشهد المغمور بضوء القمر ، وهي تحاول التمييز بين أشكال التلال المتنوعة ، لكن هذه الأشكال لا تبدو جلية كما في ضوء النهار فازدادت حيرة وارتباكاً . نظرت الى ساعتها وذهلت اذ رأت عقربيها

يشيران الى ان الوقت تجاوز العاشرة . كيف تاهت طوال هذا الوقت بدون أن تدري ؟ لو تستطيع فقط أن ترى ضوءاً واحداً يهديها الى الطريق . . . كان من عادتها أن تبقي مبنى المزرعة الرئيسي تحت بصرها ، لكن يبدو الآن ان سلسلة من التلال تحجبه عنها .

مرت ساعة فجلست على الأرض وهي تحس بداية خوف تلسعها . فكرت في خوان لكنها قررت انه لن يتنبه لغيابها لأنه ما عاد يدخل غرفتها هذه الأيام . سوف يسلم بانها آوت الى فراشها وهكذا لن يفتقد وجودها قبل الصباح . . . حتى الصباح ؟ ارتجفت رهبة وبرداً فالليالي قارسة . تذكرت كذلك وجود حيوانات مفترسة في المكسيك . لكن سرعان ما تذكرت ايضاً انها تعيش في الغابات البكر وليس في أي مكان قريب من هنا . ومع ذلك احست بقشعريرة خوف لم تفارقها بالرغم من تأكيداتها المتكررة لنفسها بانها في أمان تام .

وسرعان ما قررت أن متابعة السير افضل من الجلوس حيث لا بد أن ترى ضوءاً يهديها السبيل . لكن الليل تكاثف من حولها والهواء ازداد برودة ولسعاً . ثم أدركها التعب بشدة فارتجفت خطواتها ، وهنا وصلت فسحة صغيرة مغطاة بطبقة كثيفة من العشب الميت الجاف فاستلقت عليها في انتظار طلوع الفجر .

٩- أحلام محمومة . . .

افاقت روكسان على ضوء الفجر الباهت اللطيف فطرفت بعينيها واستوت جالسة وهي ترتجف بعنف. اين هي؟ برقت الذكرى في ذهنها فعاد اليها كل شيء. نهضت واقفة ثم أجفلت لدى احساسها بألم في ساقيها المتقلصتين. كانت ثيابها الرطبة تلتصق بجسمها وبدأت تسعل وتعطس. لقد اصيبت برشح، وهذا شيء متوقع، فكرت في نفسها وهي تزداد نقمة وغضباً على تصرفها الاحمق. نظرت حولها، فاستطاعت فوراً ان تميز اشكال التلال المختلفة وعرفت تماماً الجهة التي يجب ان تسلكها مع انها لم تكن متأكدة بأي حال أين هي بالضبط. كل ما عرفته أنها كانت تسير بعيداً عن المزرعة ليلة أمس وقد استدلت على هذا من بعد المسافة التي تفصلها عن البيت. بدأت تسير بتمهل في البداية بسبب التقلص في ساقيها، الا انها استطاعت ان تزيد سرعتها بالتدريج وترافق بزوغ الشمس، وان تعجب بروعتها بالرغم من شعورها المؤلم بالهزيمة.

كان هناك لون وردي عميق يضيء الغيوم بهالة عظيمة فوق الافق تمثل الكرة النارية الضخمة نفسها. وفوق هذه الهالة وعلى جوانبها، بدت السماء اللؤلؤية كوشاح لامع يتماوج على حافة الشروق. اما الجبال فبدت مرقطة بنحاس مصهور، فيما جوانب الوادي ما تزال هاجعة في الظل.

واخيراً اشرقت الشمس وكست السماء بمجد عابر يتيه بألوان برتقالية وذهبية ونحاسية داكنة غنية. وهنا استيقظت جوانب الوادي وقد خدشها موكب الألوان المتقدم صوبها والمتزامن مع ارتفاع الشمس المتمهل الى كبد السماء. مضت روكسان في سيرها الحثيث انما كان التعب يعيقها اضافة الى

بثور جلدية تكوّنت على اصابع قدميها. لقد جففت الشمس ثيابها واحست بامتنان للدفء الذي بعثه في اوصالها لكنها كانت تعطس بين حين وآخر، وسعالها كان يسبب لها ألماً حاداً في صدرها. . . ان عدد الاميال التي قطعتها ليلة امس شيء لا يصدق! فكرت في نفسها وهي تتابع سيرها المضني بارهاق وتكتشف أن وصولها الى درب مألوف استغرق ساعتين تقريباً.

كانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف صباحاً عندما دخلت البيت اخيراً. التزمت الهدوء وهي ترتقي الدرج وراعت ان لا تتنفس بصوت مسموع حتى وصلت غرفتها واحتمت فيها. اتجهت عيناها الى الباب الفاصل بين غرفتيهما واستطاعت ان تسمع تحركات خوان من خلاله، ثم دخلت الحمام وفتحت حنفية الماء الساخن.

بعد ان استحمت وبدلت ثيابها بدا لها شكلها مقبولاً، فنزلت الى قاعة الطعام. . . ليس بدافع اي رغبة في لقاء خوان بل لمعرفتها الاكيدة بانه سيرسل في طلبها اذا تخلفت عن تناول الافطار ولاسيما انها تخلفت مساء امس عن تناول العشاء.

وبمراعاته المعتادة والمنتظمة لآداب المائدة، قرّب لها الكرسي فجلست عليه وهي تتساءل كيف سيتخطيان فترة الطعام هذه بعد الذي حدث بينهما عصر امس. استرقت النظر الى وجهه وهو يتخذ مكانه المقابل لها. كانت خشونته ترعب البصر، انما كان في عمق عينيه تعبير آخر من التأمل الحزين، تعبير غائر يصعب فهمه، الا انه اثار فيها حناناً جارفاً تجاهه. كم هو غريب هذا الرجل ليستطيع ان يجبر عواطفها الى هذا الحد، ويجعلها تقرر في لحظة انه عفريت مريد وان تشفق عليه في اللحظة التالية كل هذا الاشفاق. . . وفكرت في نفسها، انه يبدو متعباً جداً، فجفناه محمران قليلاً من قلة النوم. لم يأكل الا قليلاً وشرب فقط نصف فنجان من القهوة. لقد حدق اليها بضع مرات اثناء تناول الطعام لكنها احست انه كان ينظر اليها دون ان يراها. . . اين تسرح افكاره؟ خلف مارتا على الارجح، مارتا التي لم تكن لتخذله ابداً كما فعلت هي بحسب اعتقاده.

هل يتوجب عليها ان تحاول شرح الوضع؟ سألت روكسان نفسها وهي تشعر فعلياً بحبها له وبحنين عميق اليه بدا انه يتصارع مع قناعتها الراسخة باستحالة الحياة معه. . . اية فائدة ستجنيها من محاولة اطلاعه على

الحقيقة؟ هزت رأسها بحركة لاواعية، فهو ليس في مزاج قابل للاصغاء ولن يصدقها. في اي حال، كانت بالفعل ترى توم بانتظام، وقد رافقته الى شاطىء اكابولكو وسبحت معه، كذلك ائتمنته على اسرارها وباحت له بكل شيء تقريباً حول الطريقة الغادرة التي لجأ اليها خوان ليحملها على الزواج منه... ان طبيعة خوان المعقدة تحول دون تفهمه وتقبله لكل هذه الأمور، ولن يقدر على الأخص ان يغفر لها ابداً. فلقد اصيبت كرامته في الصميم، وروكسان تعلم انه سيمضي وقت طويل قبل ان يصبح قادراً على النسيان.

استأذنها بترك المائدة بصوت جاف، وكان يهم بالنهوض عن كرسيه عندما انتابتها نوبة سيئة من السعال، فضغطت صدرها بيدها غريزياً وعضت شفتها من جراء الألم الذي احسته يمزقها. فسألها دون ان تظهر في صوته دلائل الخشونة المسيطرة على وجهه:

- هل انت مريضة؟

سارعت الى هز رأسها وقالت:

- كلا. بالطبع لا.

بدا واضحاً ان خوان لم يقتنع بجوابها اذ استقر بصره للحظة على المكان الذي ضغطت عليه بيدها لتخفف عنه الالم. وقال بعد هنيهة:

- ذلك السعال... لم تحسي به يوم امس. هل فعلت شيئاً جعلك تصابين بالبرد؟

هزت رأسها مجدداً وفكرت، يبدو قلقاً علي... لكنها رأته يحدجها بنظرة مقطبة فأحست بانها تتورد قليلاً لكونها كذبت عليه، وقالت معترفة:

- ذهبت ليلة امس في نزهة قصيرة، وبرد الطقس بعدئذ.

ازداد عبوسه وسأل:

- بالطبع اخذت معطفك معك؟

- نسيت... ان آخذه.

فضاقت حدقتاه وقال:

- لقد قضيت هنا وقتاً كافياً لتدركي انك تحتاجين الى ارتداء معطف في المساء.

- قطعت مسافة ابعد من التي انتويتها.

- الى اين وصلت؟

نظرت اليه بسرعة، الى عينيه الثاقبتين، فمه المتقلص... وتلك الحركة في حنكه. ماذا يجول في ذهنه، او بالأحرى، بماذا يتهمها؟ بدات تحس غضباً فردّت بجمود:

- ليست لدي أي فكرة الى اين وصلت. كنت بمفردي.

اضافت الكلمتين بلهجة متحدية بدت عديمة التأثير عليه اذ بقي تعبير وجهه كما هو.

وبعد قليل قال ينصحها:

- من الافضل ان تلزمي الفراش هذا النهار.

فبدأت تقول:

- لا ضرورة لذلك على الاطلاق...

لكن نظرته اسكتتها وسمعته يقول بحزم شديد:

- ستبقين اليوم في فراشك يا روكسان، وغداً ايضاً ان لم يخف سعالك.

قضمت شفتها مغتاظة. لقد ارادت اليوم ان ترى توم لتأخذ رأيه حول اسعار السفر ومواعيد الرحلات الجوية، ولتعرف منه اذا كانت هناك اجراءات خاصة او عقبات محتملة. لكنها ستسجن الآن في غرفتها، واستنتجت كذلك ان تُرغم على البقاء فيها لبينما يقرر خوان صلاحيتها الصحية لمغادرتها.

كانت على وشك النطق باحتجاج آخر حين بدأت تسعل ثانية، وهذه المرة اشتد عبوس زوجها وحفر اخدوداً في جبينه. قالت بسرعة:

- آسفة، سآخذ جرعة اخرى من...

فقاطعها فوراً:

- عندما تأوين الى فراشك سارسل لك مع دولوريس دواءً للسعال.

- شكراً.

اطاعت يده التي اشارت اليها بالصعود وهو ينهض من مقعده وسبقته في مغادرة الغرفة. وفيما هي عند النافذة في غرفة نومها، انفتح الباب ودخل خوان بنفسه يحمل كوباً يحتوي سائلاً غامق اللون، واستفسر بحزم:

- لماذا انت خارج الفراش؟ حالتك الصحية لا تسمح لك بالنهوض.

- خوان، انا...

تجاهل الاحتجاج الذي بدأت تشرحه واعلمها قائلاً بهدوء:
- الطبيب سيكون هنا في حوالى نصف ساعة. اصعدي الى الفراش واشربي هذا.

وضع الكوب على المنضدة المجاورة للسرير واستدار اليها سائلاً:
- هل سمعت ما قلت يا روكسان؟
- نعم.

قالت اخيراً بخضوع. كانت تشعر الآن بوهن. وما لبثت ان اصيبت بنوبة اخرى من السعال الحاد، فسأل زوجها باهتمام:
- أتريدين ان ارسل لك دولوريس لتساعدك على نزع ثيابك؟
- لا، شكراً يا خوان. سأتدبر اموري بنفسي.

اكتفى بايماءة خفيفة وغادر الغرفة. وهنا احست روكسان بارتخاء ساقيها وبقشعريرة تسري في ظهرها بشكل متواصل. ما كان أغباها حين توغلت في سيرها بعيداً ليلة امس! وكلما فكرت في غلطتها كلما صعب عليها ان تفهم كيف استطاعت ان تبتعد كل ذلك الابتعاد عن حدود المزرعة.

بدت الغرفة اكثر صقيعاً مع ان اشعة الشمس الدافئة كانت تتدفق من خلال النافذة... وفي خلال خمس دقائق نزعت ثيابها وارتدت قميص النوم ثم اندست بامتنان بين الأغطية.

الطبيب الذي دخل برفقة خوان كان رجلاً مكسيكياً طويلاً، ذا شارب اسود صغير ووجه بني مغضن. وقف بمحاذاة السرير ينظر الى روكسان للحظة طويلة ودون ان يتفوه بكلمة. ثم قاس حرارتها وعبس سائلاً اياها بلغة انكليزية مكسرة:
- اين كنت يا سنيورا حتى تعرضت للاصابة بنزلة برد كهذه؟ سوف تلزمين الفراش اسبوعاً على الاقل.

فهتفت وفمها يرتجف:
- اسبوع!

لا يمكنها ابداً ان تبقى هنا، لوحدها تماماً، طيلة اسبوع كامل! واردفت تقول:
- دكتور، اكيد انك تستطيع اعطائي شيئاً من شأنه ان يشفيني في وقت اسرع؟

فحص صدرها ناقراً اياه باصابعه وعاد يقطب جبينه قائلاً:
- كيف استطعت ان تؤذي نفسك الى هذا الحد؟

فأجابه خوان ليوفر عليها عناء الرد على اسئلة الطبيب:
- اصيبت زوجتي بنزلة برد ليلة امس عندما خرجت تتنزه بدون معطف.

فقال الطبيب مفكراً:
- اهذا كل شيء؟ هل تشعرين بألم ما في جسمك؟

اومأت روكسان بالايجاب فسألها الطبيب عن مكان الألم وهو ما يزال يتأملها مفكراً، فقالت:
- في ساقي بالدرجة الاولى وهناك بالطبع ألم صدري الناتج عن السعال.
- أحقاً؟

رفع حاجبيه قليلاً وتابع يقول بتمهل شديد:
- اظن انك لم تخبريني كل الحقيقة يا سنيورا.

فقد قلبها احدى خفقاته، وقبل ان تجد وقتاً للاجابة تدخل خوان في الحديث وكانت نبراته مستنكرة يشوبها الغضب... فبغض النظر عن رأيه الخاص في تصرفها بدا واضحاً انه لم يكن ينوي السماح للطبيب بأن يلمح الى ان زوجته كانت تكذب عليه. قال له بحدّة:
- اكيد ان زوجتي اخبرتك الحقيقة. اني اطالبك بالاعتذار اليها.

سارع الطبيب الى هز رأسه وقال:
- آسف يا دون خوان، لكن يجب ان اخبرك ان هناك دليلاً على تعرّض طويل الأمد للبرد والرطوبة.

التقت عينا روكسان بعيني زوجها انما فقط للحظة خاطفة اذ انها ارخت اهدابها بسرعة، وادركت فوراً ان خوان سيفسر هذه الحركة على حقيقتها، اي انها علامة ذنب.

نقل خوان بصره الى الطبيب سائلاً:
- تعرّض طويل الأمد؟
- اجل، لبضع ساعات، بل لساعات عديدة بحسب رأيي.

تلا ذلك صمت طويل ورهيب ثم قال خوان:
- حسن يا دكتور، ان طول الوقت الذي قضته زوجتي في الخارج لا

يشكل اهمية حقيقية. المهم هو ان تصف لها دواء يخفف ألم صدرها.

ـ بالطبع سأفعل ذلك.

بعدما شيّع الطبيب حتى الباب الرئيسي عاد خوان بعد عشر دقائق الى غرفة زوجته. وقف عند السرير وسألها باقتضاب وهو يحدق اليها بعينين نصف مغمضتين:

ـ والآن؟

فروت له كل ما حدث، واردفت قائلة:

ـ ما قدرت ان اقر بهذا امام الطبيب كيلا يُحرج موقفك... فانا لم اكن صريحة معك من قبل.

فاستوضح بصوت لطيف للغاية:

ـ لماذا لم تكوني صريحة معي من قبل؟

ـ لم احسب انه كانت هناك ضرورة لاخبارك. اقصد... عندما نزلت لتناول الافطار لم يخطر لي اني سأضطر الى ذكر الموضوع بالمرة. لكني بدأت اسعل فرحت تطرح علي اسئلة.

ـ اسئلة لم تجيبي عليها بصدق.

ظل صوته لطيفاً بيد انها ارتجفت وليس بفعل الـ د هذه المرة. اجابته وهي تحس رفيفاً في قلبها واعصابها فيما كان ألم صدرها يزداد سوءاً لحظة بعد اخرى:

ـ لا ادري في الحقيقة لماذا اخفيت عنك بعض الحقيقة يا خوان. انا... لا استطيع شرح...

صمتت ومررت يدها بسرعة على عينيها ثم اشاحت عنه لتخفي ارتجاف شفتيها المفاجىء

واضافت بصوت مختنق:

ـ انا آسفة.

اعقب ذلك صمت طويل وانتابتها رغبة ملحة في تلطيف غضبه وفي ان تشعر بيده الباردة تلمس جبينها الملتهب بالحمى، وبعد قليل قالت بارتباك:

ـ لو... لو اننا ما تخاصمنا يا خوان لما... لما كنت ذهبت ابداً ولما زرت توم كذلك. لكني كنت تعيسة جداً... تعيسة الى حد مخيف. فأمس كان

عيد ميلادي، و... كنت اود كثيراً ان تتذكره...

غريزة ما جعلتها تدير رأسها، فوجدت انها تتحدث الى نفسها اذ ان خوان كان قد غادر الغرفة بدون ان يحدث صوتاً.

في موعد الغداء ارسل الطعام اليها على صينية بواسطة... لوبيتا. كانت عليها علبة تحوي اقراص دواء وكوب ماء اضافة الى قطعة صغيرة من السمك الابيض على صحن انيق، وشريحتين رقيقتين من الخبز وبعض الزبدة وابريق صغير من الشاي الى جانبه حليب وسكّر.

قالت العجوز:

ـ هل لك ان تجلسي قليلا يا سنيورا؟

ـ اتركي الصينية على الطاولة يا لوبيتا

ادارت وجهها بعيداً عن نظرة المرأة المزدرية، هذه المرأة التي تكرهها اشد الكره واردفت:

ـ يمكنك الانصراف.

ـ انصرف يا سنيورا؟ لم أقل بعد ما جئت لأقوله.

ـ لا أشعر بأي رغبة في الاصغاء اليك. هيا، غادري هذه الغرفة، وفي المستقبل ارسلي طعامي مع دولوريس.

تجاهلت لوبيتا أمرها وقالت:

ـ امس مساء، رأيتك تخرجين يا سنيورا. سهرت في انتظارك لكني لم ارك ترجعين. في الساعة الرابعة صباحاً جئت غرفتك اذ حسبتك قد رجعت بدون ان اراك. هل كنت مع حبيبك يا سنيورا؟ استرقت اليكا السمع حين اخبرت الدون خوان انك قد ضللت طريقك، لكن تعبير وجهه دل على شك. انا اعرف تعابيره جيداً لأني اعمل لديه منذ سنوات طويلة. هو يعتقد انك كنت مع صاحبك لذا عليك ان تغادري البيت بسرعة... حالما تسمح لك حالتك الصحية بالسفر. اذا لم تفعلي فسوف يقتلك!

ـ عرفت اني كنت خارج البيت طوال الليل؟ الم يخطر لك اني قد اكون اضعت طريقي؟

التوت شفة العجوز العليا ثم اغمضت عينيها كما لو انها تعاني ألماً وقالت:

- كنت اتمنى ان تضيعي وان تظلي ضائعة الى الأبد! لكن أملي ذاك خاب! آه، اصبت بخيبة فظيعة! انما لم يكن ممكناً ان تموتي حيث كنت، لأنك حتى لو عجزت عن ايجاد طريقك للعودة الى هنا، لاستطاعوا العثور عليك.

توقفت فجأة عن الكلام ووضعت يدها على قلبها وهي تشهق وكأنها في حاجة الى هواء. . . ثم تابعت:

- لا بد انهم كانوا سيرسلون فرقة انقاذ الى هناك حيث يعثرون عليك في النهاية. لكن كان من المناسب لي اكثر لو انك متّ! اذ لاستطاعت حبيبتي مارتا، في تلك الحالة، ان تضحك من جديد!

حدقت اليها روكسان مذهولة. بدا لها مستحيلاً ان تتجرد العجوز من الرحمة الى حد تركها هناك لتموت، وبعد ان خامرها الظن في احتمال ضياعها. سألتها:

- لقد عرفت اني ضللت طريقي، اليس كذلك يا لوبيتا؟

- لا اعرف شيئاً من هذا يا سنيورا. قلت لك فقط اني تمنيت ان تكوني ضائعة، انما راودني احتمال بانك كنت في الحقول مع صاحبك.

نظرت اليها روكسان تتأملها واحست فجأة بشيء من الاشفاق يتحرك في داخلها ويمتزج بمشاعر الكراهية التي تحملها لهذه المرأة. انها مخبولة تماماً، ولا ريب انها اصيبت بهذا الجنون منذ زمن بعيد بسبب وفاة الفتاة التي احبتها كثيراً. وتوصلت روكسان الى قناعة بان المرأة قد كابدت عذاباً مبرّحاً خلال كل تلك السنوات وما تزال تعاني وسوف تتعذب الى ان يريحها الموت من عذابها. كان الزبد يطفر الآن من فمها وعضلات وجهها تتقلص كما لو انها تعاني الماً جسمانياً حاداً. ابتلعت روكسان ريقها، واجتاحتها للحظة قصيرة موجة حنان عارمة جعلتها تنسى كراهيتها لها. بدا غريباً وشاذاً بالنسبة الى تفكير روكسان المنطقي ان تدع لوبيتا حياتها تتركز برمتها حول شبح فتاة لا تربطها بها اية قربى دموية، بل كانت فقط ابنة مخدوم عملت لديه فيما مضى.

ثم تركت خدمته لتأتي وتعمل لدى والد خوان. قطبت روكسان فجأة اذ بدا لها غريباً جداً ان تقدم لوبيتا، التي احبت مارتا الى درجة الوله، على ترك ام الفتاة من الأساس، ومع ذلك تركتها. الا انها استمرت تزور ام

مارتا وتقضي كل اوقات فراغها مع البنت الصغيرة، حيث كانت تعتني بها وهي طفلة وتخرجها للتنزه في عربتها. اذن لماذا لم تبق في خدمة تلك العائلة التي كانت تنعم معها بسعادة متناهية، وكل الظواهر أكدت هذه الحقيقة؟ اجل، انه لأمر غريب جداً بالفعل ان تحب مارتا الى حد الوله، وتستطيع بالرغم من ذلك ان تتركها وتلتحق بخدمة اناس آخرين وفي مكان آخر.

عادت لوبيتا تضغط على صدرها بيدها وراحت روكسان تراقب بانسحار الأصابع الطويلة المزيلة وهي تنفتح وتنقبض بتقلص وفي الأخير قالت لها بلطف:

- لوبيتا، ارجوك ان تنصرفي. اريد أن أتناول طعامي

تألقت عينا العجوز، لكنها بدت مغلفة بنوع من الانبهار كما لو انها لم تستوعب ما قالته لها سيدتها، وغمغمت:

- سوف تتحسن حالتك في يوم أو اثنين. سارتب امر رحيلك عن هذا المكان يا سنيورا. . . لا تقلقي ابداً. هل تعدينني بذلك؟

فقالت روكسان ثانية:

- ارجوك ان تنصرفي.

فامتثلت المرأة للطلب دون ان تتفوه بشيء آخر.

تناولت روكسان قرصين من الدواء بعدما قرأت التعليمات على العلبة وكانت مكتوبة باللغة الانكليزية. ثم استلقت على ظهرها ورفعت الاغطية الى ما حول كتفيها. كانت نائمة عندما جاء خوان بعد بضع دقائق. وقف عند السرير يتأمل بحزن وشرود وجهها المتورد بالحمى، وبعد ردح التقط الصينية غير الممسوسة الطعام، وغادر الغرفة بهدوء.

الهبتها الحمى لعدة ايام حيث بالكاد احست بما كان يجري حولها. لكنها وعت بشكل غائم انها كلما فتحت عينيها مرة كانت تجد خوان هناك. . . دائماً هناك. . . يجلس بالقرب من سريرها.

ومن خلال الامواج الضبابية التي تغلف ذهنها كان يخيل اليها انها تسمعه يقول، وبنبرات لطيفة تحف بها رقة عميقة:

- روكسان. . . يا حبيبتي الغالية.

وعندها، كانت تتنهد برضاه وتستسلم مرة اخرى للظلام الزاحف عليها.

ثم اطل يوم شعرت فيه بانها تحسنت كثيراً. تذكرت تلك الاحلام التي حملت اليها صوت زوجها الرقيق الملهوف فغمرها اليأس من رأسها حتى قدميها... لو انها استطاعت فقط ان تظل كذلك الى ما لا نهاية، ان تستيقظ لتسمع كلمات تبعث فيها الراحة والأمل. لكنها عادت الآن الى الواقع، وكل ما تستطيع التفكير فيه هو كيف ان خوان غادر غرفتها بقرف عندما كانت تحاول افهامه السبب الذي دفعها الى ذلك التصرف.

أول شيء لاحظته بعد ان بدأت تهتم جدياً بما حولها هو ان مظهر خوان قد طرأ عليه تغيير خطير، فوجهه صار انحل وهناك فجوتان عميقتان تحت عظمتي خديه البارزتين، وبشرته فقدت لونها النحاسي الجذاب واصبحت رمادية وجافة، وعيناه ما عادتا تتطلعان ببريق وحدة بل صارتا مظللتين بشكل ما. اما فمه فبدا ممتلئاً وحين تأملته رأته يتحرك بصمت وتقلص. ماذا جرى له؟ هل كان مريضاً هو الآخر؟ طرحت عليه هذا السؤال فهز رأسه واجابها بهدوء:

ـ لا، يا روكسان. كنت فقط اعاني من القلق.

ـ كنت قلقاً... علي انا؟

لم تكن قد ابلت من مرضها تماماً لتستطيع ان تعلق اهمية خاصة على جوابه، وتابعت تقول:

ـ انه للطف منك ان تقلق علي.

هل خرجت كلماتها جامدة وباردة بالفعل ام انها تصورتها كذلك؟ لم يكن لديها نية واعية في ان ترفع الكلفة معه، بل العكس هو الصحيح.

وعاد يقول:

ـ انت زوجتي يا روكسان...

توقف عن الكلام متنهداً بعمق، وصمت لفترة ثم تابع قائلاً:

ـ من الطبيعي ان اقلق عليك.

زوجته... الزوجة التي اخذت مكان حبيبته القديمة. اذن هذا هو السبب الحقيقي لقلقه... لم يشأ بطبيعة الحال ان يفقد مارتا من جديد. لم يخطر لها ولا للحظة ان استنتاجاتها هذه خسيسة وغير منطقية. فهي ما تزال مشوشة الذهن بفعل المرض وتعتقد بالتالي انها ترى الوضع كله من وجهة نظر واضحة. كانت ما تزال عند رأيها بأن الحياة مع خوان ستكون

مستحيلة، ومع مرور الأيام، شغلت معظم وقتها بالتفكير في ترك المزرعة وفي العودة الى بلدها.

كان تحسنها الصحي يسير في ثبات مطرد الا انها خسرت من وزنها الكثير وبدت انحل من السابق. وجهها صار الآن كيرشمان بلون الكريم، نعومة بشرتها بقيت كما هي الا انها خلت من التألق الجذاب الذي يعطي الدليل على العافية المتكاملة.

خوان ايضاً، بدا انه يتحسن عن ذي قبل، لكن الكآبة لم تفارق عينيه السوداوين طوال الوقت، واستنتجت روكسان ان مرضها الثقيل قد اعاد اليه بقوة ذكرى ايام العذاب الرهيب الذي قاساه عندما وقعت مارتا فريسة المرض... من الطبيعي ان يعيش تلك الايام من جديد، وهذا هو سبب ذلك التعبير الكئيب والدائم في عينيه. مارتا لا تبارح افكاره ابداً...

ولأن روكسان كانت تتحسس هذه القناعة بشكل فعلي فقد وجدت نفسها تعامل زوجها ببرود اكثر من اي وقت مضى. صحيح انها تشعر نحوه بحنان لكنها تشعر كذلك ان الوقت قد حان ليصرف ذهنه كلياً عن التفكير في حبيبته القديمة. لو انه فقط يفعل هذا لاصبحت اكيدة تماماً من استطاعتها الوصول الى عواطفه، ولقدرت، من خلال حبها له، ان تجعله بالتدريج يبادلها حبها قليلاً، وبالتالي سيتمكنان من ايجاد السعادة.

وذات يوم، فيما روكسان تستريح على مقعد في الحديقة اقبلت عليها لوبيتا. كان خوان غائباً عن البيت وقد ذهب الى مدينة مكسيكو في مهمة تتعلق بالعمل. كان يخابرها يومياً، وهمت بالنهوض لظنها بان لوبيتا جاءت تخبرها بانه على الهاتف، لكن المرأة لم تأت لهذا الغرض بل لتحدثها عن جواز السفر وعن الترتيبات التي تستطيع تأمينها لرحيل روكسان.

وقالت بتلك اللهجة الخشنة التي تمقتها روكسان الى اقصى حد:

ـ سيكون الامر سهلاً يا سنيورا. سابتاع لك بطاقة سفر بالطائرة ان كنت لا تملكين المال المطلوب...

ـ كل ما اطلبه هو جواز سفري يا لوبيتا. قلت سابقاً انك تعرفين مكانه. هل يحتفظ به زوجي في غرفة مكتبه؟

سألتها بفضول، لظنها بانها قد تستطيع الحصول عليه بنفسها وهكذا تصبح في غنى عن مساعدة العجوز. لكنها اجابتها:

- كان في غرفة مكتبه، لكنه الآن في حوزتي.
- كيف تجرؤين على الاحتفاظ بشيء يخصني؟ ماذا سيقول زوجي اذا اكتشف انك اخذت جواز السفر من غرفته؟ لا جواب. . . وبدت لوبيتا شاردة في عالم آخر، فأكملت روكسان بحدة:
- سوف يطردك لو اكتشف السرقة.
ايقظتها هذه الكلمات واكتست عيناها ببريق مخيف صارت روكسان تعرفه جيداً. وهتفت:
- لن يطردني ابداً! الم اقل لك انني الرابطة الوحيدة بينه وبين مارتا؟
لاذت روكسان بالصمت. لقد ادى مرضها الى اصابتها بنوبات اكتئاب لم تستطع التغلب عليها، وشعرت الآن كما لو ان ثقلاً لا يطاق يضغط عليها من كل جانب. . . وفكرت في نفسها، حتى لو انها تعاونت مع خوان على انجاح زواجهما فان ظل مارتا سيظل قائماً بينهما ومتمثلاً في لوبيتا. . . الرابطة التي ذكرتها العجوز اكثر من مرة.
ولاحساسها بالهزيمة، ولرغبتها فقط في ايجاد نوع من الراحة الذهنية، طلبت الى لوبيتا ان تمضي في الترتيبات التي قالت انها تستطيع تنفيذها.

١٠ - متى يبدأ الحب!

مر اكثر من شهر على رحيلها من المكسيك، وروكسان ما تزال شاحبة ونحيلة. كانت تعمل كمربية لطفلتين، بعدما نصحتها والدة صديقتها كلير بأن تجد عملاً في مكان يؤمن لها السكن ايضاً. وقد قالت لها آنذاك:
- متى استقررت وارتاح ذهنك قليلاً يمكنك الشروع في البحث عن مكان مناسب للسكن.
وفي الواقع، أبدت السيدة ستوكتون استعداداً كبيراً لاستضافة روكسان في بيتها، وما كانت لتتوانى عن ابقائها لديهم بصورة نهائية، الا ان روكسان رفضت ان تتقبل ما يعتبر بالفعل نوعاً من الصدقة، فكل ما كانت تملك من مال دفعته ثمناً لبطاقة السفر الى انكلترا. وتابعت السيدة ستوكتون تقول:
- لن ترغبي بطبيعة الحال في السكن مع مخدومتك، انما كبداية سوف يناسبك هذا الترتيب اكثر من سواه. . . في رأيي على الأقل.
كانت بالطبع نصيحة ممتازة تقبلتها روكسان بامتنان واستطاعت ان تحصل على اول عمل تقدمت له بطلب خطي. كان العمل قاسياً مرهقاً وساعاته طويلة، فالصغيرتان تستيقظان باكراً ولا تأويان الى الفراش الا عند الساعة الثامنة مساء. وعلى الرغم من ذلك شكرت روكسان ربها على انشغالها الكامل اذ ما عادت تجد وقتاً فائضاً للتفكير في خوان، وفي ما كانا سيتوصلان اليه من سعادة لو انه استطاع فقط ان يحرر أفكاره من ذكرى خطيبته المتوفاة.
لم تكن بعد قد أجرت اي اتصال مع والدها، لكن مع مرور الأيام

وانقضاء شهر على وجودها في ربوع الوطن ، شعرت ان من واجبها الاتصال به في أقرب فرصة . وبما ان يوم الثلاثاء هو يوم عطلتها الاسبوعية فقد اعلمت مخدومها انها ستتغيب ذلك النهار حتى المساء .

فقالت السيدة ثورب ـ اتكنسون وهي تتأمل روكسان وتقطب جبينها بعمق :

ـ اوه ، حقاً ؟

ولكونها صبية ومتزوجة من رجل اعمال ثري ، كانت تقضي معظم وقتها في ركوب الخيل ولعب البريدج ، أو في مجرد الثرثرة وتناقل الاشاعات مع زوجات أخريات في مقتبل العمر يعشن حياة منعمة وكسولة شبيهة بحياتها . كانت بلدة رايوود في مقاطعة شروبشاير تعج بهذه النوعيات من السكان ، والتي تتصف بأصوات عالية وضحكات خاوية وتقضي معظم أوقاتها في لهو وفراغ . كان الضجر مرسوماً على وجوههن ويتمثل بوضوح في قضائهن أوقاتا طويلة عند مزين الشعر أو تلك المرأة البارعة التي تجني ثروة طائلة من تدليك وجوههن في صالون التزيين الذي افتتحته في البلدة .

وتابعت سيدة البيت تقول :

ـ كنت ارجو أن تبقي هنا لأني ابغي الخروج للتسوق . ليس لدي ما ارتديه وأنا مدعوة الى ثلاث حفلات عشاء . الا تستطيعين ارجاء ما تنوين القيام به ، الى يوم آخر؟ لا اعتقد انه امر ضروري الى هذا الحد ؟

ـ انا ذاهبة لرؤية والدي يا سيدة ثورب ـ اتكنسون .

ـ اهذا كل شيء ؟ سأعطيك اجازة يومين في الاسبوع المقبل .

ترددت روكسان اذ احست نفسها في مأزق ، فهي تكره ان تعامل بهذه الطريقة على يد شابة لا تكبرها بالسن الا قليلاً ، وفي الوقت نفسه اعتراها قلق من احتمال فقدها عملها اذا اصرت على موقفها . وبعد لحظة من التفكير اجابتها بهدوء :

ـ افضل ان اذهب اليوم يا سيدة ثورب ـ اتكنسون . الا يمكنك انت ان ترجئي التسوق الى يوم غد ؟

هزت الفتاة رأسها باستعلاء وقالت :

ـ غداً تقفل الحوانيت باكراً .

ـ صحيح .

ترددت روكسان ثانية ، ثم هزت رأسها بدورها وأردفت بحزم :

ـ سأذهب اليوم في اجازتي المقررة . اظن من الأفضل ان نحافظ على اتفاقنا بالنسبة الى يوم الاجازة هذا ، اذ اخشى في المستقبل الا اعرف متى يمكنني التغيب بالضبط .

رمقتها مخدومتها بنظرة غاضبة لكنها توقفت عن المناقشة . وهنا خطر لروكسان انه ليس من السهل ايجاد مربيات اطفال هذه الأيام بعكس انواع العمل الأخرى والمتوفرة بكثرة .

لم تستطع التغلب على الارتعاش البسيط الذي انتابها وهي تضغط على زر الجرس بعد ان سارت بتمهل على ممر البيت المؤدي الى الباب الأمامي . لغاية الآن ، لم تدع اباها يعلم بعودتها الى انكلترا ، كذلك يجهل بالطبع انها قد وضعت حداً نهائياً لحياتها الزوجية مع خوان . كان يتخذ موقفاً متزمتاً جداً من هذه الأمور ، وقد ثبت لها ذلك من خلال الزواج الذي ارغمها عليه صيانة لسمعته ، لكنها خرجت الآن من دائرة سيطرته بل ابتعدت عنها كثيراً . ثم ان واقعها الاستقلالي عزز الى حد بعيد قوة شخصيتها وثقتها الذاتية اللتين اكتسبتهما خلال فترة زواجها من خوان . وهكذا ، اذا حاول ابوها فحسب ان يؤنبها على تصرفها الأحمق بترك زوجها فسوف ترتدي معطفها وتخرج من بيته فوراً .

أجفلت ديبورا وارتدت الى الوراء اذ عجزت عن تصديق ما تراه عيناها عندما فتحت الباب ووجدت نفسها تواجه الفتاة التي ربتها منذ ان كانت طفلة وليدة ولها بضعة ايام من العمر ! وهتفت تقول :

ـ روكسان ! أانا في حلم أم يقظة ؟

فقفزت الى شفتي روكسان ابتسامة حنون وردت :

ـ بل انا ، بلحمي ودمي يا ديبورا !

ولما استمرت المرأة تحدق اليها بذهول كما لو انها ترى شبحاً ، اردفت تقول :

ـ ألن تدعيني الى الدخول ؟

ـ بالطبع ، تفضلي .

فتحت الباب على اتساعه وهي ما تزال مشدوهة وعلقت قائلة :

- انك تبتسمين ، اذن لا يمكن ان يكون هناك خطب ما . . . أين زوجك ؟

- لم يأت معي .

دخلت روكسان الردهة واستغربت ان تجدها خالية من شعورها السابق بالالفة وان تحس كما لو انها تدخل بيتاً غريباً .

وسألتها ديبورا وكأنها تود تأكيد واقع ما :

- سوف يأتي في وقت لاحق ، اليس كذلك ؟ في اي حال ، سيكون والدك مسروراً لرؤيتك .

كانت الغيوم ، منذ الفجر الباكر ، تتجمع منخفضة في الفضاء ، وبما ان المدخل الخارجي المسقوف مظلم بطبيعته ، لم تلحظ المربية العجوز شحوب روكسان ونحول جسمها الشديد الا عندما اصبحتا في غرفة الجلوس ، حيث اتسعت عيناها دهشة ، بعدما احتوت الفتاة بنظرة شاملة سريعة . لكن قبل ان تتيح لها فرصة للكلام اخبرتها روكسان انها كانت مريضة وشرحت السبب بقولها :

- ضللت طريقي في البراري وقضيت ليلة كاملة في العراء وهكذا اصبت ببرد حاد فلم استطع التغلب على نتائجه الا بعد وقت وطويل . اني اتحسن الآن وقد بدأت استعيد وزني المفقود .

- لكن لا يجدر بك ان تتجولي هكذا اذا كنت مريضة . . .

فرفعت روكسان يدها معترضة . . . ها هي ديبورا تعود الى عاداتها السابقة فتملي عليها ما هو مسموح وما هو ممنوع من التصرفات . . .

- قلت لك اني اتحسن .

توقفت قليلاً ثم أردفت :

- بل صرت معافاة تماماً يا ديبورا ، والدليل اني اعمل حالياً . . . مربية لطفلتين .

حدقت اليها المرأة مشدوهة وبدا واضحاً انها لم تصدق ما سمعته اذناها . قالت :

- لا احسبني افهم ما تقصدين ! لديك زوج يعيلك ، اذن ما الذي يضطرك الى العمل ؟

- انا اعمل هنا ، في شروبشاير . لقد تركت زوجي .

- تركت . . .

لوّحت ديبورا يديها في الفضاء مرتعبة وأردفت :

- كلا ! بحق السماء ! والدك سوف يموت من العار !

جلست روكسان بهدوء على احد المقاعد وكانت قد نزعت معطفها وقفازها في الردهة وتركتها هناك . وسألت مربيتها :

- اين والدي يا ديبورا ؟

- انه خارج البيت وأحمد الله على ذلك ! اخبريني كل شيء يا صغيرتي . تقولين انك تعملين مربية اطفال ؟ لماذا لم تأتي الى بيتك ؟ يجب أن تفعلي ذلك . اعطيني اسم هذه السيدة التي تعملين لديها كي اخابرها بالهاتف . . . تعملين مربية اطفال ! هذا حتماً لا يليق بك على الاطلاق ! ابوك لن يرضى بهذا الوضع بتاتاً !

ابتسمت روكسان من طرافة الموقف وقالت :

- اخشى يا ديبورا اني مضطرة الى تخييب أملك فلقد اصبحت الآن سيدة نفسي وانا عازمة على الاستمرار في عملي

حدقت اليها ديبورا للحظة كالخرساء ثم أعلنت في تأكيد :

- انت مريضة بالفعل . لا شك انك مريضة والا لما كنت تتحدثين الي على هذا النحو . وبالنسبة الى قضية انفصالك عن زوجك ، فأروي لي القصة بكاملها .

روت لها روكسان اجزاء معينة منها فأخبرتها فقط ما ارادتها ان تعرفه . لم تذكر اسم مارتا بتاتاً لكون ديبورا لا تعرف شيئاً عنها . واكتفت روكسان بالقول ، كتعليل لانفصالها عن خوان ، بأن طباعهما المتنافرة حالت دون انسجامهما الزوجي ولهذا قررت ان تهجر تلك الحياة التي لم تكن لا هي ولا زوجها يستمتعان بها .

وللمرة الثانية شخصت اليها المربية العجوز بلسان معقود . وبعد فترة طويلة من الصمت والتأمل قالت لها بلطف :

- يا صغيرتي ، ينبغي ان تأتي الى بيتك وتدعيني واباك نعتني بك . وبعد ان يشفى ذهنك تماماً سوف نرسلك ثانية الى زوجك .

فردت عليها روكسان بهدوء :

- ذهني سليم وليس به أي انحراف . انا اعرف ما تبغين يا ديبورا . . .

انت لا تريدينني ان اتابع حياتي الماضية والتي تركتها لدى زواجي من خوان . انا انسانة مستقلة ، وسأبقى هكذا دائماً .

قطبت السيدة العجوز وقد تحول اهتمامها الى جهة اخرى اذ بدأت تستوعب التغيير الحقيقي والمخيف الذي طرأ على الفتاة بعد ان كانت مثال الطاعة التي اعتبرتها ديبورا دائماً امراً بديهياً . . . وقالت تسألها :

ـ تبدين في منتهى الهدوء يا صغيرتي . الا يزعجك البتة ان تدعي زواجك يتحطم بهذا الشكل ؟

فأحست روكسان بغصة مؤلمة تسد حلقها وتجمعت خلف عينيها غيمة من الدموع الجامحة . لكنها حافظت ظاهرياً على تصرفها الفاتر وأجابت :

ـ الزيجات المحطمة صارت شيئاً عادياً هذه الأيام ، انا لا اختلف عن مئات الشابات الأخريات ، وسوف اشق طريقي الخاصة في الحياة .

توقفت حين رأت السيدة المسنة تهز رأسها بذهول مستمر وبألم مض . بدا ذلك واضحاً تماماً لروكسان ، فهي تعرف ماذا يعني كل تغيير يطرأ على وجه مربيتها وحركاتها ، ولذا اردفت بلطف :

ـ يؤسفني ان اسبب لك هذا الحزن والقلق يا ديبورا ، لكن لا انا ولا خوان استطعنا الاستمرار على ذلك النحو .

كانت تعلم انها تكذب ، فخوان ما كان ليتوانى عن الاستمرار في تلك الحياة الى الأبد . . .

وغمغمت ديبورا تخاطب نفسها :

ـ زواج محطم . . . لن يتغلب أبوك المسكين على هذه المصيبة ابداً .

وفجأة فقدت روكسان صبرها وقالت بحدة :

ـ ما كان يجب ان يرغمني عليه من الأساس !

ـ يرغمك ؟

ـ كلاكما ، انت وأبي ، ضغطتما علي حتى قبلت .

فذكرتها ديبورا بلطف :

ـ لكن يا صغيرتي ، يبدو انك نسيت تلك الظروف القاهرة التي أوجبت الزواج .

فردت قائلة :

ـ كانت تلك الظروف مخالفة تماماً لظواهرها . لقد حاولت ان اشرح

لكما الوضع في حينه لكن كليكما لم يكن مستعداً للاصغاء الي . اما انا فكنت على استعداد للمغامرة بكل شيء مقابل ان تنصريني وتقفي الى جانبي ، لكنك خذلتني يا ديبورا . . . وهكذا امتثلت كالعادة ، وكنت تلك الطفلة المطيعة التي تحني رأسها دائماً لرغبات ابي ولرغباتك . والآن ، هذه هي النتيجة ! لكن ، هناك في الواقع فائدة واحدة جنيتها من كل الذي حصل وهي اني تحررت من سيطرة الآخرين وأصبحت سيدة نفسي .

ـ لا اصدق انك تتكلمين بهذه الطريقة !

بدت ديبورا تعاني توتراً كبيراً اذ كسا وجهها شحوب شديد ، فانتاب روكسان احساس أكيد بان المرأة كانت تتخيل المشهد الذي سيعقب وصول أبيها الى البيت . . . وأكملت مربيتها قائلة :

ـ انت لست نفس الفتاة التي رحلت من هنا .

فسارعت روكسان الى الموافقة بقولها :

ـ لا اشبهها بأي شيء . لقد تغيرت ، وأنا مسرورة بذلك .

ـ وخوان . . . اكيد انه انزعج كثيراً من انهيار الزواج ؟

لاذت روكسان بالصمت . لم تكن تنوي اخبار ديبورا بأنها هربت من بيت الزوجية في اثناء غياب زوجها عن البيت . واستعرضت في مخيلتها ذكرى ذلك اليوم ، كما لو انها تشاهد شريطاً سريعاً . . . حزم حقائبها ، التاكسي المنتظر عند الباب ، تسلمها جواز سفرها من لويتا التي زودتها قبلاً بالمعلومات المطلوبة حول مواعيد السفر الجوي وثمن البطاقة والوقت الذي ستستغرقه حتى تصل المطار . . . لقد وقفت المرأة العجوز على درج المدخل تراقب رحيلها عن المزرعة ، اما هي ، فبكت في التاكسي طيلة الطريق ، واضطرت الى ان تستعين بكل ما لديها من تصميم كيلا تطلب الى السائق ان يحوّل وجهة سيره ويعود بها الى البيت . فحتى في وضعها الحازم ذاك ، بدت قوة خوان تمتد نحوها عبر المسافة وتجذبها اليه موهنة عزيمتها . وحتى وهي موجودة هنا ، وآلاف الأميال تفصل بينها وبينه ، يبدو لها احياناً ، ان شخصيته كانت قوية الى درجة ستتمكن معها من اجتياحها في نهاية المطاف .

قالت اخيراً وهي تحس نظرات ديبورا الاستجوابية مسلطة عليها :

ـ لقد حكم على زواجنا بالفشل منذ البداية .. اعتقد ان خوان ادرك

ذلك الآن .

ـ شيء محزن للغاية . الزيجات المنهارة تثير الحزن دائماً .

حدقت روكسان للحظة في الفضاء ، ثم عزمت على وضع حد لهذا الحوار الشاذ الذي بدت ديبورا عاكفة على متابعته ، فسألتها بصوت مرح :

ـ ألن تقدمي الي فنجاناً من الشاي ؟ انا اعتبر ضيفة كما تعلمين .

رمقتها المرأة بنظرة شديدة العبوس وقالت :

ـ لا تقولي اشياء كهذه ! اقول لك بصراحة يا روكسان ان تصرفك هذا يصدمني اكثر مما تتصورين . ارجو الا تكوني في طريقك لأن تصبحي واحدة من اولئك الشابات العصريات !

ـ اتقصدين طريقة لباسي ؟ ما يمنع ان اصبح كذلك يا ديبورا ؟

ثم استعاد صوتها رنّته العطوفة المرحة وأضافت تقول :

ـ سأكون عصرية ، على حد تعبيرك ، من حيث تصميمي على الاحتفاظ بشخصيتي المستقلة . في الوقت الحاضر علي ان اقوم بهذا النوع المعين من العمل ، وحتى يحين الوقت لأتلفت حولي ، اذا جاز التعبير ، وارى الى أين أود ان اذهب . وآنذاك سأبحث عن عمل أنسب من هذا ، كذلك سأبحث عن شقة استقر فيها أو عن بيت صغير جميل .

فقالت ديبورا تنصحها بصوت ينم عن قلق عميق :

ـ تعالي الى بيتك يا صغيرتي ، فأنت لم تعتادي ابداً العناية بنفسك .

ـ انني اعتني بنفسي في الوقت الحاضر .

ـ لشد ما تغيرت !

أعلنت ديبورا هذا بصوت حزين واتجهت الى المطبخ لتعد ابريقاً من الشاي .

كانتا تشربانه معاً عندما وصل أبوها . صوت دوران المفتاح في القفل جعل ديبورا تجفل بوضوح فيما احست روكسان برفيف في اعصابها ، انما لم تكن خائفة بأي شكل . رفعت بصرها عندما دخل والدها غرفة الاستقبال ورأت عينيه تتسعان بدهشة . سارعت الى تأخير السؤال الذي لمحته يتكون على شفتيه فقالت مبتسمة :

ـ مرحباً يا أبي . قبل لحظة خلت ، كنت اسبب صدمة لديبورا المسكينة وذلك باخبارها بأني قد تركت زوجي .

صمت من قبل السيد هاتون ، الرجل الطويل المستقيم الظهر ذي القامة العسكرية والذي بدا فجأة انه يحني كتفيه قليلاً .

وفي الأخير استطاع أن يسألها :

ـ صحيح ما سمعته منك يا روكسان ؟

ـ انا وخوان انفصلنا عن بعضنا يا ابي وقد عدت الى انكلترا بصورة نهائية

وهنا قالت ديبورا بلهجة مأساوية :

ـ الطفلة وجدت عملاً ، انها تشتغل كمربية .

فأضافت روكسان تكمل المعلومات :

ـ قبل أن تدخل في أي نقاش ، اعلمك ايضاً اني لا انوي العودة الى هنا . فمن اليوم فصاعداً سأشق طريقي في الحياة بنفسي .

حدق اليها بعينيه الرماديتين وبطريقة مخيفة طالما جعلت رجالاً عديدين يرتجفون في حضرته ، لكن روكسان لم تؤثر فيها هذه النظرة بتاتاً . بل انها واجهتها بعينين ثابتتين . . . رأسها يرتكز على كتفيها باعتزاز وذقنها يشمخ في قوة وتحد .

ـ هل تدركين انك تخاطبين أباك ؟

سألها اخيراً وقد تعمد شحذ صوته بالصرامة ليذكّرها بأنها لم تخاطبه بهذه الطريقة ولا مرة واحدة في حياتها .

لكنها اجابته بهدوء :

ـ كلمتك باحترام ولم يبدر مني عكس ذلك . لقد بيّنت لك فقط ما انوي فعله ، كيلا تحاول أن تفرض ارادتك علي مثلما فعلت ديبورا . لقد قررت ان اقف على قدمي الاثنتين، ولا شيء قد تقوله انت أو ديبورا سيجعلني أغيّر رأيي .

ـ فهمت .

حافظ على كرامته ظاهرياً بشكل جيد ، لكنه تألم داخلياً ، كما تألمت ديبورا . احست روكسان بالأسف انما لم يزعزع هذا الشعور عزيمتها وقال والدها :

- اذن قررت الا تعودي الى زوجك والا ترجعي كذلك الى بيتك ؟
هزت رأسها نفياً وردت :
- اصبحت الآن مسؤولة عن نفسي يا ابي .
فنظر اليها من حيث يقف على عتبة باب غرفة الاستقبال ، حيث لم يتحرك نصف خطوة منذ ان وقع بصره عليها وهي تجلس هناك تحتسي الشاي ، وبطريقة بدت له بالتأكيد طريقة لا مبالية الى ابعد حدود اللامبالاة . ثم استوضحها بقوله :
- ما السبب الذي حملك على ترك زوجك ؟
فأجابت ديبورا بالنيابة عنها :
- لأنها لم ينسجما مع بعضهما البعض .
فخاطب ابنته بنوع من السخرية الحادة :
- ألم تتأخري قليلا في اكتشاف هذه الحقيقة ؟
تنهدت روكسان من اعماق صدرها وقالت بكبرياء هادئة وهي تنهض عن مقعدها :
- هذا الحديث ليس مفرحاً لأي منا يا ابي . سأنصرف الآن ، واذا اردتني ان ازورك في اي وقت من الأوقات فما عليك الا ان تخابر هذا الرقم التلفوني .
كانت قد سحبت دفتراً صغيراً من حقيبة يدها وبدأت تدوّن الرقم على احدى صفحاته ، ثم انتزعتها من الدفتر وقربتها منه ليأخذها ، لكنه نظر اليها بسرعة ومنها الى وجه ابنته ثم مر بها صامتاً نحو غرفته . فما كان من روكسان الا ان وضعت قطعة الورق الرقيقة على الطاولة وخرجت الى الردهة لتسترد معطفها وقفازها .
تبعتها ديبورا باكية وقالت تناشدها :
- يا عزيزتي . . . لا تخرجي بهذه الطريقة .
فردت عليها بهدوء :
- ديبورا ، لم اسمع منك ولا من ابي كلمة عطف واحدة ، كلاكما اهتم فقط بما يعتبره خطأ وصواباً وما اهتم قط بما قد اكون اقاسي من عذاب ، ولذا ادركت الآن ان كل الحب الذي منحتكما اياه لم يجد لديكما تجاوباً حقيقياً . فانتما منحتماني حماية بدل الحب ، وكانت حماية مفرطة .

لكن بالرغم من توكيدها الصريح هذا فقد سارعت واحاطت كتفي ديبورا بذراعيها وقبّلت خدها .
وفيما كانت تفتح الباب الأمامي لتغادر البيت ناشدتها المرأة العجوز بقولها :
- دعينا نراك ثانية يا طفلتي العزيزة .
- ذلك يتوقف على أبي ، اذا دعاني الى هذا البيت فسوف ألبّي الدعوة بكل سرور .
ثم هبطت الدرج ركضاً ومضت تسير بسرعة الى موقف الباص بقلب مثقل انما بعزم ثابت وثقة . انها امرأة متزوجة بالرغم من حقيقة عدم وجود زوجها معها ، وبالتالي يجب أن يُسمح لها بتسيير دفة حياتها حسبما تريد . هذا ما تعوّل على فعله ، حتى لو أدّى الى قطع علاقتها بوالدها نهائياً .
لم يكن هناك مناص من أن يسمع جويل بنبأ عودتها الى انكلترا ، وذات يوم ، وبعد مرور اسبوعين على زيارتها لوالدها وديبورا ، اخبرتها مخدومتها ان شاباً جاء البيت في غيابها طالباً رؤيتها ، وأضافت السيدة ثورب ـ اتكنسون بحدة :
- ارجو ان تفهميه بألاّ يأتي ثانية يا روكسان ، فمن احد شروطي الا اسمح لأصدقاء مستخدماتي الشبان بزيارتهن في بيتي .
كانت روكسان وقتها في غرفة الطفلتين ريتا وعمرها سنتان ونصف سنة ، وايما وعمرها ستة أشهر ، وقد وضعتهما في سريريهما لتناما قيلولة بعد الظهر . كانت تجمع ثيابهما المتسخة تحضيراً لغسلها ، فرفعت بصرها بشيء من الدهشة عندما خاطبتها مخدومتها هكذا ، ورددت عابسة :
- شاب جاء لرؤيتي ؟
- شاب يدعى السيد جويل بوير .
احست روكسان بتورد بسيط يصبغ وجهها وأجابت :
- اوه . . سآتي لرؤيته حالاً ، أين هو ؟
- في الحديقة . تركته واقفاً على الدرج . احسبك سمعت ما قلته قبل لحظة ؟
فردت روكسان بصوت بارد :
- اجل سمعتك يا سيدة ثورب ـ اتكنسون .

كانت في هذا الوقت قد بدأت البحث عن عمل آخر وفضلت عملاً في مكتب ، لكنها لم توفق بسبب عدم خبرتها في مجال السكرتارية ، فضلاً عن عدم وجود مكان تسكن فيه حتى لو واتاها الحظ ووجدت من يستخدمها في مكتب بدون خبرة . لكنها تستطيع في أي حال ان تسكن مع والدة كلير بصورة مؤقتة ، وهي لا تمانع في الأقدام على ذلك ما دامت قادرة على دفع مبلغ لقاء هذا السكن .

خرجت الى الحديقة لتلاقي جويل ، ووجدته واقفاً عند سياج من الأعشاب يحدق الى ما وراءه من أزهار .

وغمغم حين وصلت مكانه :

ـ روكسان ... تناهى الي انك قد تركت زوجك . و ... و ....

ارتج عليه فبسط يديه امامه وتابع يقول :

ـ ما زلت احبك .

رأته يبتلع ريقه بحركة متقلصة ، وأردف يسألها :

ـ هل يوجد بعض الأمل في أن نعود الى بعضنا ؟ هل باشرت معاملات الطلاق ؟

نظرت اليه ملياً وتساءلت كيف يمكنها ان تفعل ذلك بدون أن يخامرها أقل احساس بالعاطفة أو الحنين أو الندم ؟ لكن وجه زوجها تراءى لها بزهاء حاجباً عنها وجه الشاب ، كما لو انه يذكرها بأنها ما تزال ملكه .

وأجابت جويل بهدوء :

ـ لم يدر بيني وبين خوان أي حديث عن الطلاق .

ـ ولكن ... هل انفصلتما نهائياً ؟

ردت عليه بايماءة ايجابية ولما رأته يلوذ بالصمت سألته بلطف :

ـ من أعلمك بعودتي الى انكلترا ؟

ـ التقيت بصديقة لكلير ، اخبرتني انك تعملين لدى امرأة هي السيدة ثورب ـ اتكنسون ، وهكذا حصلت على عنوانها من دليل التلفون . ارجو الا تكوني تضايقت من مجيئي لرؤيتك ؟

ـ ابدا .

نظر في عينيها وقال :

ـ لقد تغيرت يا روكسان .

فذكرته بقولها .

ـ واجهت الكثير من المصاعب

ـ وبرغم ذلك لم ينجح الزواج ؟ كيف له ان ينجح ... مع زوج غريب ؟ ان تقاليدهم تختلف عن تقاليدنا وطرق معيشتنا .

بقيت صامتة فتابع يقول :

ـ اشعر باني خذلتك يا روكسان ... لقد حدثت امور كثيرة استعصى علي فهمها . لكني ادركتها في وقت لاحق .. بعد فوات الأوان . ادركت انه من المستحيل ان تكوني ذهبت مع ذلك الرجل بمحض ارادتك

ولما استمرت تلوذ بالصمت عاد يقول :

ـ كانت هناك اشياء كثيرة لم استطع فهمها . لقد ارغمت على الزواج من رجل لا تحبينه وحسناً فعلت بتركك اياه . كانت لديك كل الأسباب الموجبة لتركه .

تأملته روكسان وقالت برقة :

ـ من الواضح اني تركته لسبب معين لكني لم افعل ذلك لأني لم اكن احبه .

فقطب حاجبيه بحيرة واستوضحها :

ـ أتقصدين ... انك تحبينه فعلاً ؟

ـ هذا بالضبط ما عنيته يا جويل .

ـ لكن لماذا انت هنا ، اذن ؟

ـ قلت لتوي انه كان لدي سبب خاص دفعني الى تركه .

فهز رأسه بشيء من نفاد الصبر لكن الحقيقة ما لبثت ان تراءت له فقال :

ـ فهمت ، ان زوجك لا يبادلك الحب . أليس كذلك ؟

فأومأت مجيبة :

ـ اجل ، هذه هي الحقيقة .

ـ لو كان يحبك لتبعك الى هنا .

فاعترفت بحزن :

ـ لقد فكرت في هذا .

- هل كنت تأملين ان يلحق بك ؟

ارتجفت شفتاها ، لكنها عدا عن هذه الدلالة العاطفية البسيطة ظلت محتفظة بهدوئها ورباطة جأشها . . . الآن فقط ، عندما انفتح موضوع زواجها ، تأكدت الى أي مدى كانت تتوق في لا وعيها ، الى ان ترى زوجها يطل عليها فجأة آتياً لاستردادها ومبرراً ذلك بأنه اكتشف اخيراً انه يحبها . هل كانت لتعود معه لو اتى ؟ اجل ، بل وتعود بفرح وبصلاة شكر تغمر قلبها .

واعترفت اخيراً بقولها :

- كنت آمل فعلاً ان يأتي الي .

تكاثف العبوس في جبهة جويل وقال :

- انسي أمره يا روكسان . . . باشري معاملات طلاقك منه كي تستطيع بعد ذلك ان نتزوج . . . سنعود رأساً الى البداية .

فقاطعته بلطف :

- لا ينبغي ابداً ان نحاول العودة الى البداية فتصرّف كهذا من النادر ان ينجح . . . اني اعمل في هذا البيت لأني ارفض العودة الى الحياة السابقة التي عشتها قبل زواجي .

- هل ستعملين وتكدحين كجارية طوال حياتك؟

فاضطرت الى ان تقول:

- انا لست بجارية كادحة. ما الذي أوحى اليك بهذه الفكرة؟

- استوحيتها من صديقة كلير اذ قالت ان السيدة ثورب- اتكنسون ليست لطيفة معك كما يجب.

- هذا صحيح، لكنها لا تقدر ان تعاملني كجارية. لن اسمح لها بذلك.

فبدأ يقول محاولاً اقناعها:

- روكسان، ارجوك ان تفكري بعرضي وتوليه بعض اهتمامك.

هزت رأسها بحزم وقالت:

- لقد فات الأوان يا جويل. انا احب زوجي وسأحبه دائماً.

وقفت عند السياج تراقبه وهو يسير متمهلاً في اتجاه البوابة الخارجية، ثم استدارت على عقبيها ورجعت الى غرفة الطفلتين والى الغسيل الذي انتوت

انجازه. وجدت الصغيرتين نائمتين ورأت امها تتجه الى المرآب وبعد قليل سمعتها تنطلق بالسيارة. وفكرت روكسان، لقد ذهبت لتمضي العصر مع عدد من صديقاتها الشابات، وسوف يقتلن الوقت بالثرثرة الفارغة واحتساء الشاي ومن ثم تستقل كل منهن سيارتها الخاصة، ويعدن الى بيوتهن مهرولات كي يتسنى لهن تزيين وجوههن وارتداء ثياب انيقة ليستقبلن ازواجهن لدى رجوعهم من المدينة بواسطة القطار.

كانت روكسان في المطبخ تخرج الثياب الصغيرة من الغسالة الكهربائية عندما دخلت عليها دورا، المرأة التي تأتي ثلاث مرات في الاسبوع لتنظيف البيت، وناولتها برقية .

- أهذه لي أنا؟

قفز قلبها من مكانه اذ ادركت غريزياً ان البرقية مرسلة من توم. لقد كتبت اليه تخبره عن عملها وطلبت اليه ان يجيبها برسالة عندما يجد وقتاً لذلك. بسطت الورقة المطوية بأصابع مرتجفة، وما ان انتهت من قراءتها حتى غاضت كل نقطة دم من محياها.

- لوبيتا اطلقت النار على الدون خوان. حالته خطرة. . .

لوبيتا. . . وتلك الغمغمات الهاذية بعد ان ذكرت المسدس، وبعد ان أقرّت بأن فكرة قتل روكسان كانت تراودها احياناً. هل فكرت ايضاً بقتل خوان؟ واضح انها فعلت.

وهتفت روكسان بصوت معذب:

- لماذا لم احزر بأنها قد تفعل؟

لكن في اللحظة التالية تغلبت على رد فعلها القصير تجاه معلومات البرقية المخيفة وهتفت بصوت عال:

- دورا، تعالي هنا!

- ماذا. . .

- عليك ان تعتني بالطفلتين لبينما تعود أمهما يا دورا. البرقية تستدعي حضوراً عاجلاً. . .

- لا اقدر يا روكسان، انت تعرفين جيداً اني اغادر دائماً في تمام الثامنة والنصف.

- يجب ان تبقي! ان زوجي في حالة الخطر وانا ذاهبة اليه!

- من؟ لم اعرف بأن لديك. . .
- اطلبي لي سيارة تاكسي ثم خابري المطار.

كانت روكسان تصعد الدرج ركضاً وهي تبرق لدورا بهذه التعليمات، واكملت هاتفة من فوق:

- ناديني عندما تؤمّنين الاتصال بالمطار.
- ولكن. . .

فصرخت روكسان بانفعال عندما رأت المرأة واقفة بلا حراك:

- اسرعي دورا، ارجوك! اسرعي!
- اوه، حسناً، سأفعل.

غمغمت دورا وبدأت تجري الاتصالات.

وفي هذه الاثناء، وضعت روكسان كل ما تملك من مال في كيس صغير وحشرت فيه ايضاً قميص نوم وادوات اغتسالها ومن ثم جواز سفرها، واخيراً اختطفت معطفها وركضت تنزل الدرج. وجدت ان دورا قد أمّنت اتصالاً هاتفياً بالمطار فتناولت روكسان السماعة منها.

بعد ثلث ساعة كانت تستقل التاكسي المسرع بها الى الطائرة.

كان خوان في احد مستشفيات مدينة مكسيكو وقد نقل اليه عندما وجد الاطباء ان حالته تستدعي اجراء عملية جراحية ثانية. كانت روكسان قد ارسلت برقية الى توم من المطار في انكلترا تعلمه فيها بقدومها، فاحست بالارتياح حين رأته في انتظارها لدى وصولها المطار المكسيكي. كان يعرف بالطبع عنوان المستشفى فتكفل بأخذها اليه على جناح السرعة.

ظلت لدقائق طويلة تخشى التلفظ بالسؤال الذي عذبها طوال الرحلة الليلية على متن الطائرة، وفي الأخير استفسرت متلعثمة:

- هل. . . هل. . هو في طور الاحتضار؟

فردّ توم:

- اعرف فقط ان حالته خطرة. لقد استخرجوا الرصاصة بدون صعوبة على ما يبدو، لكنه اصيب بعد ذلك بمضاعفات استوجبت نقله الى المستشفى هنا كي تجري له جراحة ثانية. يؤسفني ان لا اكون دقيقاً في معلوماتي يا روكسان، اذ عرفت كل هذا عن لسان شخص آخر، ذلك الرجل العجوز الذي يأتي من المزرعة احياناً الى حانوتي كما تعلمين، ومنه

وحده اطلعت على مجريات الامور، اضافة الى اجابات المستشفى التي كنت اتلقاها عندما اخابر للاستفسار عنه. وفي كل مرة كانوا يقولون انه لا يزال على لائحة الخطر

- كيف حصلت الحادثة؟
- فجأة، فقدت لوبيتا عقلها، ويبدو انها حصلت على مسدس من مكان ما، واطلقت النار على الدون خوان.

تملك روكسان عذاب ذهني رهيب حين تخيلت المشهد فتساقطت دموعها على خديها كما المطر. وهتفت وهي تعصر يديها الراجفتين:

- لا اطيق التفكير في ذلك. لا بد انه عانى الماً فظيعاً.

لم يجد توم ما يقوله، ولما تمالكت نفسها قليلاً سألته:

- متى وقع الحادث؟
- قبل اسبوع تقريباً، لكني لم اسمع الخبر الا صباح امس فأبرقت اليك فوراً. عرفت انه سيهمك الاطلاع على ما حصل.
- اجل. . . شكراً يا توم. لن انسى لك هذا الفضل ما حييت.

اكتفى بسعلة خشنة كما لو ان الحرج يسد حلقه وانعطف بالسيارة داخلاً بوابة المستشفى. بعد خمس دقائق كانت روكسان تحدق الى الرأس الاسود الشعر المستلقي على الوسادة، وتتساءل عما اذا كان خوان غائباً عن الوعي ام ينام نوماً طبيعياً، فالممرضة التي قادتها الى جناح المرضى الخاص، لم تقدر ان توضح لها شيئاً لجهلها اللغة الانكليزية. لكن سرعان ما دخل طبيب الى الغرفة، ومع انه رمقها بنظرة غريبة الا انه لم يضيع الوقت في طرح اسئلة غير ضرورية كأن يسألها اين كانت طوال فترة مرض زوجها، او لماذا جاءت الآن بالذات. اكتفى بالقول:

- يسرني ان اراك.

ثم اضاف بنبرة خالية من اي تعبير:

- ارجو يا سنيورا، ان تكوني قادرة على تزويد زوجك بالرغبة في الحياة.

سألته وعيناها تتسعان دهشة:

- لا افهم ما تعني.
- هل كنتما منفصلين؟

ولما اومأت بالايجاب مضى يقول انه لم يعلم بوجود زوجة الا عندما ذكر

خوان ذلك في اثناء هذيانه، لكن حين استجوبه بعدما استعاد وعيه وألح في الاستجواب، رفض خوان ان يتحدث عنها بتاتاً. واضاف الطبيب يقول بالصوت الجامد اياه:

- اذا استطعت ان تقنعيه تماماً بانك تحبينه فسوف تتحسن حالته الصحية بسرعة. لم تعد هناك اية مضاعفات على الاطلاق، باستثناء تلك المتسببة عن فقدان رغبته في الحياة.

- هل... يرغب... في ان يموت؟

شعرت بألم رهيب يملأ قلبها... فخوان ما عاد قادراً على متابعة المعركة ولا يبغي الا ان يلتحق بحبيبته. بسطت يديها بحركة عاجزة وسألت الطبيب بمرارة:

- ما الذي يمكنني فعله؟

- اخبرتك لتوّي يا سنيورا.

- لكنك لا تفهم... انا لست...

خفضت صوتها ثم انقطع حين فتح خوان عينيه على حين غرة. وفي طرفة عين رمت بنفسها عليه، وقد نسيت كلياً جرح العملية في جسمه، وانخرطت تبكي وتهتف مرددة:

- لا تتركني يا خوان! ابق الى جانبي... انا احبك واحتاجك.

سالت دموعها على وجهها وانتقلت ايضاً الى وجهه. وعادت تقول متأوهة:

- لا تتركني... دكتور، لا تدعه يتركني.

فتقدم الطبيب وانهضها بيدين لطيفتين عن الفراش حتى وقفت على قدميها، لكنه ظل يسندها ممسكاً بكتفيها، وحسناً فعل لأنها احست بساقيها تلتويان تحتها ولا تقويان على حملها.

- لا تدعه يموت... حتى لو اراد هو ذلك!

- روكسان.

لم تكن الكلمة اكثر من همسة مبحوحة، لكنها استدارت بسرعة وراحت تمسح الدموع عن وجهها بظاهر كفها، وهتفت:

- خوان!

- تعالي هنا.

تركها الطبيب تذهب فعادت الى جانب السرير. انحنت عليه تلمس جبينه بشفتيها وناشدته قائلة:

- خوان. لا تتركني. انا احبك واحتاج وجودك... اعرف انك لا تستطيع ابداً ان تحبني لكني سأتعلم العيش مع هذا الواقع...

- انا لا احبك؟

بدا غائم النظرات ومتعباً جداً. استدارت روكسان ورمقت الطبيب بنظرة متسائلة اذ خشيت ان لا يستطيع خوان تحمّل هذه المؤثرات. لكن الطبيب اشار لها بيده مطمئناً. وعاد خوان يقول بصوت واهن:

- انا لا احبك؟ لكني اخبرتك مرات عديدة اني احبك...

هز رأسه يمنة ويسرة على الوسادة وسألها:

- هل قلت ذلك حقاً؟

ذهلت للحظة لكنها سرعان ما تنبهت الى رنة الالحاح التي شابت صوته فقالت برقة:

- اني احبك؟ نعم يا خوان. قلت ذلك بالفعل. انا احبك.

ما القصد من كلماته؟ هل هو يهذي؟ نظرت الى الطبيب مستفسرة، الا انه لم يكن ينظر اليها بل يركز كل اهتمامه على المريض، وفجأة لاحظت التغيير الذي طرأ على نظراته، فقد زال منها القلق الذي رأته قبل دقائق فقط، عندما دخل الغرفة وتعرفت اليه لأول مرة. وسألت زوجها والفرح يثقل لسانها:

- اخبرتني... عدة مرات، انك... تحبني؟

- لا بد اني فعلت ذلك في احلامي...

تغضن جبينه وهو يحاول التركيز، وتابع:

- لقد حلمت مراراً وتكراراً انك هنا، تقولين لي انك تحبينني. كنت اجيبك بأني احبك ايضاً...

انقطع عن الكلام ثانية فأشارت الى الطبيب بحركة خفيفة مذعورة بأنه من الافضل ان تغادر الغرفة.

لقد ارعبها ظنها بان هذا الحديث سيرهق زوجها، اذ كان واضحاً تماماً انه احدث له توتراً كبيراً. لكن الطبيب اشار بيده ثانية ليطمئنها. وسمعت زوجها يقول متابعاً:

- ولدى استيقاظي كنت اجد دائماً انك رحلت. . .

ثم غمغم بصوت بالكاد سمعته:

- مجرد احلام. . . تعذبني.

فهمست له:

- حبيبي، هذا ليس حلماً، انا هنا، معك.

اخذت احدى يديه في يدها وقالت وهي تضغطها برقة:

- خوان، يا أعز الناس الي، انا هنا.

نظرت عيناه الغائمتان في عينيها، وراحت اصابعه تستكشف يدها ورسغها، ثم همس:

- انت هنا حقيقة.

تنهد واغمض عينيه قرير القلب.

استدارت روكسان وحدقت الى الطبيب وقد بدت بدورها زائغة البصر.

فرد الطبيب بهدوء وعيناه تجولان في وجهها الرائع الجمال:

- انه بالطبع يحبك يا سنيورا. كيف يمكن ان يكون الامر خلاف ذلك؟

ثم نقل بصره الى الرجل المستلقي على السرير، كان يتنفس بانتظام فابتسم الطبيب راضياً. قالت له روكسان:

- اخالك تتساءل لماذا تركته مع اني احبه، لكنك ترى، اني كنت اجهل حبه لي. حسبت. . .

بترت عبارتها وصمتت. . .

- سنيورا، كنت تقولين؟

هزت رأسها وقالت ان الامر لا يهم. ففي غمرة هذا الفرح المدهش الطافح به قلبها، لا شيء في العالم يهم الا حقيقة ان زوجها قد استرجع الارادة على الحياة.

كانت هناك امور كثيرة تحتاج الى ايضاح فيما بينهما، حوادث محيّرة للطرفين. وقد شرحاها لبعضهما البعض بالتدريج مع مرور الايام حيث كانت روكسان تزوره يومياً في المستشفى. علمت منه انه بدأ يحبها بعد الزواج مباشرة، وذهل خوان الى حد الصدمة حين كاشفته بقناعتها بأنه كان يستغلها كزوجة ليظل يتذكر مارتا من خلالها. وهذا الشق الاخير أثار

غضبه الى حد جعل روكسان بعد ذلك تتحفظ كثيراً في كلامها، لكن حين استوضحها سبب انفجارها وهربها منه عقب حديثها عن حوض السباحة، اضطرت مرة ثانية الى اخباره السبب بصراحة، فهتف غاضباً:

- اعتقدت بالفعل اني كنت افكر بها هي؟

فانتابها احساس واثق بانه لو استطاع التحرك من الفراش، لامسكها من كتفيها وهزها من شدة الغضب.

وبدأت تقول وهي تقدم عذراً اقبح من ذنب:

- لقد ذكرت لون شعري. . .

- وهكذا ظننت. . .؟ روكسان، كنت تخفين افكاراً غريبة جداً طوال تلك الأشهر.

لم تقل شيئاً، لكنها اشاحت وجهها عنه وقد اذهلها عجزها الكامل عن رؤية الامور من زواياها الصحيحة. قال بنبرة ألطف بكثير من سابقتها:

- سأعلّق دائماً على جمالك فذلك جزء من حبي لك.

وبدا قلقاً وهو يردف:

- روكسان، عديني بان لا تسيئي فهم اي شيء اقوله لك في المستقبل.

- اعدك بذلك. كنت بلهاء يا خوان.

لم يحاول مناقضة كلامها، وبعد تردد بسيط غامرت بالقول انه كان يعاملها احياناً بما يقرب من القسوة وقد عززت هذه المعاملة قناعتها بانها لن تستطيع الوصول الى قلبه ابداً. . . فغامت عيناه بالندم وهو يبرر ذلك بقوله:

- احسست انك لا بد ان تكرهيني دوماً لكوني تزوجتك بسبب شبهك لمارتا. ومع مرور الزمن ما عدت اطيق احتمال الوضع. كنت قد احببتك كثيراً في ذلك الوقت ولذا كان احتقارك وازدراؤك يلسعان جرحي المفتوح كالسوط ويثيران اسوأ ما لدي من طباع. اغفري لي يا حبيبتي ما سببته لك من جراح عميقة.

احست انفعالاً خانقاً منعها من الكلام فتابع خوان بصوت محفوف بالألم:

- ابتعت لك هدية لعيد ميلادك وكنت اتلهف الى اعطائك اياها. . .

خف صوته اذ شرد يفكر فقالت وقد اوشكت على البكاء:

- كنت اريد تلك الهدية بشكل يائس يا خوان. . .
توقفت اذ رأته ينظر اليها بحيرة شديدة، فاردفت معترفة:
- رأيتها في خزانتك. عندما كنت ابحث فيها عن جواز سفري.
وهنا لم تتمالك نفسها فسألته:
- ماذا كانت الهدية؟
- حقيبة من جلد التمساح. لكن الهدية الاهم والتي اردتها ان تعبر لك عن مبلغ حبي، كانت داخل الحقيبة.
توقف مفكراً ثم تابع:
- كانت سواراً من الماس والياقوت. سوف تستلمين الهدية لدى عودتنا الى البيت.
فهتفت:
- اشعر بخجل رهيب من نفسي. . . استحق عقاباً اليماً على الالم الذي سببته لك!
تطلعت اليه دامعة العينين واردفت:
- كان يجب ان ابوح لك بحبي!
- لا يا عزيزتي، كانت المبادرة مطلوبة مني انا، لكن شعوري بالذنب حال دون اقدامي عليها. كنت اعلم اني اخذتك عنوة من الرجل الذي تحبين، او بالاحرى الذي حسبت انك تحبينه. . . لهذا السبب لم ألحق بك عندما هجرتني، اقنعت نفسي وقتها بأني سأجدك مع هذا الرجل الآخر.
فهزت رأسها الجميل وقالت تذكره ببساطة:
- كان حبك وحده المسيطر علي.
صمتت قليلاً ثم اردفت:
- اوحى توم الي مرة، اني كنت ارغب ضمناً في الزواج منك، مع اني لم اكن اعي تلك الحقيقة.
فقال:
- اظن انك وعيتها يا روكسان، والا لما كنت رضخت لضغط والدك.
نظر في عينيها عميقاً فرأت اعماق حبه مرسومة في مقلتيه وقال مذكراً اياها:
- الم اقل لك مرة، اننا خلقنا لبعضنا بعضاً؟

- اجل، وكنت مصيباً يا خوان.
واضافت بأسى نادم:
- ليتني وعيت ذلك في حينه.
- لا عليك يا حبيبتي. كل ذلك صار الآن صفحة مطوية.
في مناسبة اخرى تكلما صدفة عن لوبيتا. كان كلاهما يتعمد الابتعاد عن ذكرها، لكن فيما كانت روكسان تحدثه عن عذابها، عندما كان يبدو انها لن تستطيع ابداً التوصل الى قلبه، زل لسانها بشيء من اقوال لوبيتا، ولخوفها من توريط المرأة، توقفت فجأة عن الكلام الا ان خوان استحثها على المتابعة. ولما امتثلت، استشف انها كانت تختصر اشياء كثيرة فقال بحزم:
- اريد الاطلاع على كل التفاصيل يا روكسان.
فاضطرت عندئذ ان تروي له الحكاية بكاملها، ولما انتهت علق قائلاً:
- كم كنت طفلة مسكينة! لماذا، يا حبيبتي الغالية، لم تستنجدي بي حيث كنت سارعت الى وضع حد لكل ذلك الشر؟
- كنت اشفق عليها. . . في اعماقي.
- لا ريب انها تستحق الشفقة.
صمت طويلاً ثم اعلمها بهدوء:
- لوبيتا كانت والدة مارتا.
- ام مارتا؟
حدقت اليه بذهول وهي تخبر نفسها بأنها كان يجب ان تحزر هذه الحقيقة. . .
- ولكن كيف. . .؟
- لقد انجبت طفلاً من رجل مجهول الهوية عندما كانت تعمل لدى السنيورا لويز وتلك بدورها كانت انجبت طفلاً في الوقت ذاته لكنه توفي. ثم اقنعت لوبيتا بان تتنازل عن ابنتها للسنيورا لويز. . . واتصور انها اقدمت على ذلك بسرور فعلي في حينه. لقد احيطت العملية بسرية تامة ولم يعرف بها الا اصحاب الشأن فقط. انا نفسي، لم اعرف الحقيقة الا بعد وفاة مارتا. علمتها من لوبيتا وكانت يومها في حالة هستيرية من فرط الحزن.
شرد لفترة وكأنه يستذكر المشهد المريع فلم تحاول روكسان ان تقطع

حبل افكاره. ثم تابع:

ـ صارت، على ما يبدو، اكثر احساساً بملكيتها للطفلة مع مرور الزمن وهكذا اقنعوها بايجاد عمل آخر. جاءت وقتها وعملت لدى ابي، لكنها لم تُحرم ابداً من حقها في رؤية ابنتها، وكانت تذهب الى بيت السنيور لويز في كل اوقات فراغها.

فقالت روكسان والحنان يظلل وجهها الرائع:

ـ مسكينة لوبيتا. هل تظنها ستحظى يوماً بسلام نفسي؟

اجابها بلطف:

ـ لقد حظيت به.

ولما حدقت اليه روكسان مشدوهة، اعلمها بقوله:

ـ تناهى الي صباح اليوم انها توفيت بذبحة قلبية بعد اسبوع من دخولها مصحاً للأمراض العقلية.

ـ ماتت...

احست روكسان باختناق في حلقها وامتلأت عيناها بالدموع بالرغم من شعورها بأن الموت قد يكون افضل الحلول، نسبة الى ما كابدت المرأة من تعاسة وعذاب في السنوات الأخيرة.

ـ يا حبيبتي الصغيرة، لا تبكي.

ـ يؤلمني التفكير في تعاستها.

ـ بعد كل الأذى الذي ألحقته بك؟

ـ فعلت ذلك بدافع الغيرة وبسبب اختلالها الذهني. ارادتك ان تحب مارتا الى الأبد.

اومأ مفكراً، ثم روى لها انه بعد وفاة مارتا شعر بأن الحياة ما عادت تعني له شيئاً وان لا مستقبل له...

ـ هكذا يشعر المرء عندما يكون شاباً في الثالثة والعشرين. لكن مع مرور السنوات ادركت ان الزمن كفيل بشفاء الجراح وانني سأبدأ صفحة جديدة في الحياة. وقبل أربع سنوات تقريباً بدأت أرمم الاضرار التي لحقت بالبيت والاملاك من جراء الاهمال، ووجدت متعة كبيرة في اعادة كل شيء الى رونقه القديم. اما لوبيتا فقد حقدت علي لأني بدأت انسى مارتا، وخطر لي مراراً ان انذرها بترك الخدمة انما كنت اشفق عليها في كل مرة

وهكذا بقيت معي.

فقالت روكسان مفكرة:

ـ كنت بدأت تعيش مجدداً يا خوان لكنك في نفس الوقت عزلت نفسك عن جميع الناس.

ـ في الواقع لم انقطع عن العالم بصورة مطلقة، فحين ألقيت بنفسي في مصالحي العملية، استطعت ان اشغل وقتي وان احتك ايضاً بأولئك الذين اتعامل معهم. لكن في مكان صغير كهذا، سرعان ما تزدهر الشائعات، واتصور ان الناس ابتدعوا قصة تشكي ليجدوا شيئاً يتسلون به. ثم ان اهلي لم ينقطعوا بتاتاً عن زيارتي وفعلوا ذلك في مناسبات معينة... مع اعترافي بندرتها. وفي الواقع، كنت ارفض استقبالهم في البداية، ليس لأني لم اود رؤيتهم بل لشعوري آنذاك باني لا اصلح لرفقة احد.

لم تقل روكسان شيئاً. كان واضحاً تماماً انه احب مارتا الى حد الوله انما كان واضحاً كذلك ان ذكراها بدأت تمحي من مخيلته منذ زمن بعيد.

هذه المكاشفات المتبادلة تمت بشكل متسلسل اذ ان الطبيب كان حازماً في جعل روكسان تتقيد بساعات الزيارات. وهكذا، وفي مناسبة اخرى، علمت انه كاد بالفعل ان يقدم على خنق رجل، او بالاحرى خنق لص تسلل الى البيت، وقال خوان يشرح ما حدث:

ـ لقد قاومني وقتها كعفريت، والطريقة الوحيدة التي استطعت اسكاته بها لبينما يصل البوليس كانت القبض على عنقه.

وهنا ضحك بجذل واضاف:

ـ لا تخافي يا حبيبتي، فأنا لن اصل ابداً الى حد خنقك مع انك تفقدينني اعصابي احياناً.

ـ لن اعود الى ذلك ابداً.

سكت عن التعليق فقالت:

ـ خوان... رأيتك مرة في الهيكل...

لم تكمل اذ خشيت احراجه، الا انها نظرت اليه متوسلة كما لو انها تصر على معرفة السبب. فقال:

ـ كنت اصلي صباح كل يوم طالباً من الله ان يجعلك تحبينني ولكي تغفري لي بالتالي ما ارتكبته بحقك.

نطق الكلمات ببساطة وبتواضع وبفيض من الحب والرقة مما جعلها تنحني صوبه بحنان. ثم قالت:

- انها لصدفة غريبة، اذ كنت اشعر احياناً باني لو استطعت معرفة ما نصلي لاجله لانفضحت طريقي اكثر، فانا فكرت بتركك منذ البداية.

- فعلت ذلك؟

ابتلع ريقه بصعوبة ونبض عرق في جانب فكه، وتابع:

- انا مسرور لكوني لم اعرف في حينه. لماذا اقدمت على تركي في النهاية؟

- اعتقدت اني لن استطيع الوصول اليك... بسبب حبك لمارتا.

ثم اخبرته كيف حصلت على جواز سفرها، فاتسعت عيناه دهشة وقال:

- قالت لوبيتا انها رأتك تخرجين من غرفة مكتبي والجواز بيدك، وعندها استجوبتها حول وقت رحيلك وكيفية سفرك.

- هي التي ارادتني ان ارحل ووعدتني بالمساعدة...

توقفت فجأة ثم اردفت:

- دعنا نقفل موضوع لوبيتا المسكينة يا خوان. كانت شريرة فعلاً بسبب مرضها العقلي انما كانت حزينة جداً في اعماقها، فانا اعرف كيف سيكون شعوري اذا... اذا فقدت طفلاً.

اخذ يدها في يده وقال بهدوء:

- افهم ذلك تماماً، والحق معك يا عزيزتي، لا يجب ان نأتي على سيرتها ابداً، ولندعها ترقد في سلام.

واخيراً، وقلبها يخفق بانفعال شديد خالته سيؤثر على حواسها، وجدت روكسان نفسها تجلس الى جوار خوان وهما يعودان الى البيت في سيارة توم الذي اصر على القيام بهذه المهمة الجليلة.

- انك تبدو رائعاً!

كانت قد هتفت عندما دخلت الجناح ورأت خوان في كامل ثيابه وقد استرد لونه الطبيعي تقريباً... ما زال وجهه يذكرها بنسر، انما بنسر لطيف وليس كطير مفترس... اجل، كان وجهه النسري مغلفاً بالرقة وعيناه السوداوان تفيضان حباً وسعادة. واجابها وهو يفتح لها ذراعيه ليحضنها:

- مشاعري في قمة الروعة كذلك. اخبريني يا حبيبتي الغالية، كيف

حدث كل ذلك؟

هزت رأسها بحيرة وكأنها لا تعرف من اين تبدأ فاقترح ان تخبره متى أحبته بالضبط...

- احببتك بالتدريج، وذات يوم وعيت الحقيقة... انك لا تعرف ابداً متى يبدأ الحب، اليس كذلك يا حبيبي؟

- كلا يا حبيبتي، اخالنا لا نعرف.

صمت قليلاً فظنته ينتظر قدوم الممرضة التي ستأتي لتعلمهما بوصول توم، لكنه عاد يقول:

- يخيل الي انني احببتك دفعة واحدة يا روكسان... بدأت ارى انك لا تشبهين في الواقع اية فتاة اخرى، كنت انت، بشخصيتك المميزة التي جذبتني، بتصرفاتك الصغيرة الخاصة وصوتك العذب الغالي.

شدد ذراعيه بحب حولها وتابع هامساً:

- انت لست سوى حبيبتي روكسان... زوجتي.

ابتعدا عن بعضهما لدى دخول الممرضة التي خاطبت خوان بالاسبانية وهي تبتسم. وعند بوابة المستشفى شكرا الطبيب والممرضة اللذين شيعاهما الى هناك وتبادلوا عبارات الوداع. كان توم ينتظرهما في سيارته، وفي تعبير وجهه شيء ما جعل روكسان تسأله:

- هل ربحت ثروة يا توم؟

- ربحت اكثر من المال! اخذت رسالة من فيليس تقول فيها انها ستأتي لكي... لكي... احزري لماذا!

- لتتزوجك بالطبع!

وفي الطريق، انحنى خوان من مكانه على المقعد الخلفي وقال له:

- انا مدين لك باعتذار يا توم...

فقاطعه الشاب بسرعة:

- لا عليك. كل ما يهمني الآن ويفرحني هو ان كل شيء انتهى كما يجب.

فرد خوان:

- اذن دعني اشكرك على الاقل ومن كل قلبي. انا وروكسان مدينان لك بهذه السعادة لكونك ارسلت لها تلك البرقية.

بعد ذلك صمت ثلاثتهم، كل مع افكاره الخاصة، وفي الاخير قال خوان:

- ارجو ان نتلقى دعوة الى الزفاف.

فرد توم بفرح ظاهر:

- سيشرفنا ذلك كثيراً يا دون خوان.

عاد الصمت يخيم عليهم الى ان توقف توم امام المدخل وسلم عليهما مودعاً. شكراه على ايصالهما ووقفا متشابكي الايدي يراقبان السيارة حتى اختفت عن البصر.

استدارت روكسان تنظر الى المنزل الابيض المهيب الغارق في اشعة الشمس، وهمست منتشية:

- عدنا الى بيتنا.

- اجل، عدنا الى بيتنا.

ردد خوان عبارتها بحرارة. وبدون ان يفلتا اصابعهما المتشابكة، ارتقيا الدرج الرخامي متمهلين، فيما الباب المفتوح يرحب بقدومهما.

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 162

تحسبين الدقائق

من قلب الأشياء الميتة تولد أحياناً زهرة. وهناك دائماً بارقة أمل في قلب اليأس تطل وتغني. دون خوان راميريز فكر ان موت خطيبته هو نهاية العالم. أغلق على نفسه ابواب الحياة وظل يعيش بعيداً عن الناس في مزرعته الموحشة طيلة عشر سنوات. ولكنه صدفة يلتقي روكسان الجميلة، زهرة مجتمع سمع بها قبل ان يراها. انها صورة طبق الأصل عن خطيبته، وهذا بحد ذاته كاف ليجعله يخرج من عزلته بحثاً عن شعاع مستحيل.

كيف يقنعها بحب رجل ترتعش خوفاً كلما رأته، هذا الرجل الذي يلقبونه «بالنسر الأسود» لأنه يشبه طائراً جارحاً؟

والسراب الذي وجده وتشبث به كالغريق، كيف يحوّله الى حقيقة؟